( ويجعلكم خلفاء الأرض ) وقوله ( إنى جاعل فى الأرض خليفة ) وقوله ( عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ) وقوله ( ورفع بعضكم فوق بعض درجات ) أى فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوى والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة فى ذلك كقوله تعالى ( نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ) وقوله ( انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا )

وقوله تعالى ( ليبلوكم فيما آتاكم ) أى ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم وامتحنكم به ليختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره والفقير فى فقره ويسأله عن صبره . وفى صحيح مسلم من حديث أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » وقوله تعالى ( إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ) ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ( وإنه لغفور رحيم ) لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب . وقال محمد بن إسحق ليرحم العباد على ما فيهم رواه ابن أبى حاتم وكثيرا ما يقرن الله تعالى فى القرآن بين هاتين الصفتين كقوله ( وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم * وإن ربك لشديد العقاب ) وقوله ( نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم ) إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها وتارة بهما لينجع فى كل بحسبه ، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب . وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا زهير عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون » ورواه الترمذى عن قتيبة عن عبد العزيز الدراوردى عن العلاء به وقال حسن ورواه مسلم عن يحيى ابن يحيى وقتيبة وعلى بن حجر ثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر عن العلاء وعنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى » وعنه أيضا قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » رواه مسلم — آخر تفسير سورة الأنعام ولله الحمد والمنة

## ﴿ تفسير سورة الاعراف وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓصٓ * كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

قد تقدم الكلام فى أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه ، قال ابن جرير حدثنا سفيان ابن وكيع حدثنا أبى عن شريك عن عطاء بن السائب عن أبى الضحى عن ابن عباس ( المص ) أنا الله أفصل وكذا قال سعيد بن جبير ( كتاب أنزل إليك ) أى هذا كتاب أنزل إليك أى من ربك ( فلا يكن فى صدرك حرج منه ) قال مجاهد وقتادة والسدى شك منه وقيل لا تتحرج به فى إبلاغه والانذار به ( فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ) ولهذا قال ( لتنذر به ) أى أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ( وذكرى للمؤمنين ) ثم قال تعالى مخاطبا للعالم ( اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ) أى اقتفوا آثار النبى الأمى الذى جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شىء ومليكه ( ولا تتبعوا من دونه أولياء ) أى لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ( قليلا ما تذكرون )

كقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقوله (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) الآية وقوله (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾

يقول الله تعالى (وكم من قرية أهلكناها) أى بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزى الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) وكقوله (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) وقال تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين) وقوله (فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون) أى فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتا أى ليلا أوهم قائلون من القيلولة وهى الاستراحة وسط النهار وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) وقال (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم) وقوله (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) أى فما كان قولهم عند مجىء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا كقوله تعالى (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة - إلى قوله - خامدين) قال ابن جرير: فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم» حدثنا بذلك ابن حميد حدثنا جرير عن أبى سنان عن عبدالملك بن ميسرة الزراد قال: قال عبدالله بن مسعود قال رسول الله ﷺ «ماهلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم» قال قلت لعبد الملك كيف يكون ذاك قال فقرأ هذه الآية (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين)، وقوله (فلنسألن الذين أرسل إليهم) الآية كقوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) وقوله (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب) فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ولهذا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين) قال عما بلغوا، وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن حدثنا أبوسعيد الكندى حدثنا المحاربى عن ليث عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده» قال الليث وحدثنى ابن طاوس مثله ثم قرأ (فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين) وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين بدون هذه الزيادة وقال ابن عباس فى قوله (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون (وما كنا غائبين) يعنى أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شىء لايغيب عنه شىء ولايغفل عن شىء بل هو العالم بخائنة الأعين وماتخفى الصدور (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين)

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

يقول تعالى (والوزن) أى للأعمال يوم القيامة (الحق) أى لا يظلم تعالى أحدا كقوله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقال تعالى (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية * وما أدراك ماهيه * نار حامية) وقال تعالى (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون)

﴿ فصل ﴾ والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما قال البغوى يروى نحو هذا عن ابن عباس كما جاء فى الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف . ومن ذلك فى الصحيح قصة القرآن وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون فيقول من أنت فيقول أنا القرآن الذى أسهرت ليلك وأظمأت نهارك . وفى حديث البراء فى قصة سؤال القبر « فيأتى المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح » وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء فى حديث البطاقة فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول يارب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى إنك لا تظلم . فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان قال رسول الله ﷺ « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذى بنحو من هذا وصححه وقيل يوزن صاحب العمل كما فى الحديث « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة » ثم قرأ (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) وفى مناقب عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال « أتعجبون من دقة ساقيه والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحد » وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها والله أعلم

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قرارا وجعل فيها رواسى وأنهارا وجعل لهم فيها منازل وبيوتا وأباح لهم منافعها وسخر لهم السحاب لاخراج أرزاقهم منها وجعل لهم فيها معايش أى مكاسب وأسبابا يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) وقد قرأ الجميع معايش بلا همز إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها والصواب الذى عليه الأكثرون بلا همز لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشا ومعيشة أصلها معيشة فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت معيشة فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال فقيل معايش ووزنه مفاعل لأن الياء أصلية فى الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدن وصحف وأبصر فان الياء فيها زائدة ولهذا تجمع على فعائل ونهمز لذلك والله أعلم

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾

ينبه تعالى بنى آدم فى هذا المقام على شرف أبيهم آدم ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منطوع عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وهذا كقوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشرا سويا ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الله تعالى وجلاله فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين وقد تقدم الكلام على إبليس فى أول تفسير سورة البقرة وهذا الذى قررناه هو اختيار ابن جرير أن المراد

بذلك كله آدم عليه السلام وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن منهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ( ولقد خلقناكم ثم صورناكم ) قال خلقوا فى أصلاب الرجال وصوروا فى أرحام النساء رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضا أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم الذرية

وقال الربيع بن أنس والسدى وقتادة والضحاك فى هذه الآية ( ولقد خلقناكم ثم صورناكم ) أى خلقنا آدم ثم صورنا الذرية وهذا فيه نظر لأنه قال بعده ( ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ) فدل على أن المراد بذلك آدم وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر كما يقول الله تعالى لبنى إسرائيل الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ ( وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ) والمراد آباؤهم الذين كانوا فى زمن موسى ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء وهذا بخلاف قوله ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ) الآية فان المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معيناً والله أعلم

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

قال بعض النحاة فى توجيه قوله تعالى ( مامنعك أن لا تسجد إذ أمرتك ) لا هنا زائدة وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد كقول الشاعر * ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * فأدخل « إن » وهى للنفى على ما النافية لتأكيد النفى قالوا وكذا هنا ( ما منعك أن لا تسجد ) مع تقدم قوله ( لم يكن من الساجدين ) حكاها ابن جرير وردها واختار أن منعك مضمن معنى فعل آخر تقديره ما أحرجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا . وهذا القول قوى حسن والله أعلم ، وقول إبليس لعنه الله ( أنا خير منه ) من العذر الذى هو أكبر من الذنب كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول يعنى لعنه الله وأنا خير منه فكيف تأمرنى بالسجود له ؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص قوله تعالى ( فقعوا له ساجدين ) فشذ من بين الملائكة لترك السجود فلهذا أبلس من الرحمة أى أويس من الرحمة فأخطأ قبحه الله فى قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضا فان الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والاصلاح والنار من شأنها الاحراق والطيش والسرعة ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والانابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » هكذا رواه مسلم وقال ابن مردويه حدثنا عبدالله بن جعفر حدثنا إسماعيل بن عبدالله بن مسعود حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « خلق الله الملائكة من نور العرش وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » قلت لنعيم بن حماد أين سمعت هذا من عبد الرزاق ؟ قال باليمن وفى بعض ألفاظ هذا الحديث فى غير الصحيح « وخلقت الحور العين من الزعفران » وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن كثير عن ابن شوذب عن مطر الوراق عن الحسن فى قوله ( خلقتنى من نار وخلقته من طين ) قال قاس إبليس وهو أول من قاس إسناده صحيح وقال حدثنى عمر بن مالك حدثنى يحيى بن سليم الطائفى عن هشام عن ابن سيرين قال أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس إسناد صحيح أيضا

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا لإبليس بأمر قدرى كونى ( فاهبط منها ) أى بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى

فما يكون لك أن تتكبر فيها قال كثير من المفسرين الضمير عائد إلى الجنة ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التى هو فيها فى الملكوت الأعلى ( فاخرج إنك من الصاغرين ) أى الذليلين الحقيرين معاملة له بنقيض قصده ومكافأة لمراده بضده فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين قال ( أنظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين ) أجابه تعالى إلى ما سأل لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس (إلى يوم يبعثون ) واستوثق إبليس بذلك أخذ فى المعاندة والتمرد فقال ( فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ) أى كما أغويتنى قال ابن عباس كما أضللتنى وقال غيره كما أهلكتنى لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذى أبعدتنى بسببه على ( صراطك المستقيم ) أى طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياى وقال بعض النحاة الباء هنا قسمية كأنه يقول فباغوائك إياى لأقعدن لهم صراطك المستقيم قال مجاهد :صراطك المستقيم يعنى الحق وقال محمد بن سوقة عن عون بن عبد الله يعنى طريق مكة ،قال ابن جرير الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك ( قلت ) لما روى الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل يعنى الثقفى عبد الله بن عقيل حدثنا موسى بن المسيب أخبرنى سالم بن أبى الجعد عن سيرة بن أبى الفاكه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك قال فعصاه وأسلم » قال « وقعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال قال فعصاه وجاهد » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة » وقوله ( ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ) الآية قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ( ثم لآتينهم من بين أيديهم ) أشككهم فى آخرتهم ( ومن خلفهم ) أرغبهم فى دنياهم ( وعن أيمانهم ) أشبه عليهم أمر دينهم ( وعن شمائلهم ) أشهى لهم المعاصى وقال ابن أبى طلحة فى رواية العوفى كلاهما عن ابن عباس أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم وأما من خلفهم فأمر آخرتهم وأما عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله . وكذا روى عن إبراهيم النخعى والحكم بن عيينة والسدى وابن جريج إلا أنهم قالوا من بين أيديهم الدنيا ومن خلفهم الآخرة وقال مجاهد من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون واختار ابن جرير أن المراد جمع طرق الخير والشر فالخير يصدهم عنه والشر يحسنه لهم وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله ( ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ) ولم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل من فوقهم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ( ولا تجد أكثرهم شاكرين ) قال موحدين وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم وقد وافق فى هذا الواقع كما قال تعالى ( ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ) ولهذا ورد فى الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها كما قال

الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حدثنا نصر بن على حدثنا عمرو بن مجمع عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم يعنى نافع بن جبير عن ابن عباس وحدثنا عمر بن الخطاب يعنى السجستانى حدثنا عبيد الله بن جعفر حدثنا عبد الله ابن عمرو عن زيد بن أبى أنيسة عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يدعو « اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتى » تفرد به البزار وحسنه وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبادة بن مسلم الفزارى حدثنى جرير بن أبى سليمان بن جبير بن مطعم سمعت عبد الله بن عمر يقول لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » قال وكيع من تحتى يعنى الخسف . ورواه أبوداود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به وقال الحاكم صحيح الإسناد

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

أكد تعالى عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفى عن محل الملأ الأعلى بقوله ( اخرج منها مذءوما مدحورا ) قال ابن جرير أما المذءوم فهو المعيب والذأم غير مشدد العيب يقال ذأمه يذأمه ذأما فهو مذءوم ويتركون الهمز فيقول ذمته أذيمه ذيما وذاما ، والذام والذيم أبلغ فى العيب من الذم قال والمدحور المقصى وهو المبعد المطرود وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم مانعرف المذءوم والمذموم إلا واحداً وقال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن التيمى عن ابن عباس اخرج منها مذءوما مدحوراً قال مقيتا وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس صغيرا مقيتا وقال السدى مقيتا مطرودا وقال قتادة لعينا مقيتا وقال مجاهد منفياً مطروداً وقال الربيع بن أنس مذءوما منفيا والمدحور المصغر . وقوله تعالى ( لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ) كقوله (قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا )

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى فى المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ماهما فيه من النعمة واللباس الحسن ( وقال ) كذبا وافتراء ( مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ) أى لئلا تكونا ملكين أوخالدين هاهنا ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما كقوله ( قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ) أى لئلا تكونا ملكين كقوله ( يبين الله لكم أن تضلوا ) أى لئلا تضلوا ( وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ) أى لئلا تميد بكم وكان ابن عباس ويحيى بن أبى كثير يقرآن ( إلا أن تكونا ملكين ) بكسر اللام وقرأه الجمهور بفتحها ( وقاسمهما ) أى حلف لهما بالله ( إنى لكما لمن الناصحين ) فانى من قبلكما هاهنا وأعلم بهذا المكان وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين كما قال خالد بن زهير ابن عم أبى ذؤيب

وقاسمهم بالله جهدا لأنتم * ألذ من السلوى إذ مانشورها

أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله ، وقال قتادة فى الآية حلف بالله إنى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعان أرشدكما وكان بعض أهل العلم يقول من خدعنا بالله انخدعنا له

﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال كان آدم رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها فانطلق هاربا فى الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة فقال لها أرسلينى فقالت إنى غير مرسلتك فناداه ربه عز وجل يا آدم أمنى تفر؟ قال يارب إنى استحيتك وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ مرفوعا والموقوف أصح إسنادا وقال عبدالرزاق أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك أنبأنا الحسن بن عمارة عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما وكان الذى وارى عنهما من سوآتهما أظفارهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض فانطلق آدم عليه السلام موليا فى الجنة فعلقت برأسه شجرة من الجنة فناداه الله يا آدم أمنى تفر ؟ قال لا ولكنى استحيتك يارب قال أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك قال بلى يارب ولكن وعزتك ماحسبت أن أحداً يحلف بك كاذباً قال وهو قول الله عز وجل ( وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ) قال فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ثم لاتنال العيش إلا كدا قال فأهبط من الجنة وكانا يأكلان منها رغدا فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب فعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد ثم داسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه ماشاء الله أن يبلغ وقال الثورى عن ابن أبى ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ( وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ) قال ورق التين صحيح إليه وقال مجاهد جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال كهيئة الثوب وقال وهب بن منبه فى قوله ينزع عنهما لباسهما قال كان لباس آدم وحواء نورا على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما رواه ابن جرير بسند صحيح إليه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال : قال آدم أى رب أرأيت إن تبت واستغفرت قال إذا أدخلك الجنة وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة فأعطى كل واحد منهما الذى سأله وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال لما أكل آدم من الشجرة قيل له لم أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها قال حواء أمرتنى قال فإنى قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها قال فرنت عند ذلك حواء فقيل لها الرنة عليك وعلى ولدك وقال الضحاك بن مزاحم فى قوله ( ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ) هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

قيل المراد بالخطاب فى ( اهبطوا ) آدم وحواء وإبليس والحية ومنهم من لم يذكر الحية والله أعلم والعمدة فى العداوة آدم وإبليس ولهذا قال تعالى فى سورة طه قال ( اهبطا منها جميعا ) الآية وحواء تبع لآدم والحية إن كان ذكرها صحيحا فهى تبع لإبليس وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات

والله أعلم بصحها ولو كان فى تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين فى أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى فى كتابه أو رسوله ﷺ وقوله ( ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ) أى قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت فى الكتاب الأول وقال ابن عباس ( مستقر ) القبور وعنه قال (مستقر) فوق الأرض وتحتها رواهما ابن أبى حاتم وقوله ( قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ) كقوله تعالى ( منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ) يخبر تعالى أنه جعل الأرض دارا لبنى آدم مدة الحياة الدنيا فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نشورهم ليوم القيامة الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازى كلا بعمله

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش فاللباس ستر العورات وهى السوآت والرياش والريش جمل به ظاهرا فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات قال ابن جرير : الرياش فى كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وحكاه البخارى عنه الرياش: المال ، وهكذا قال مجاهد وعروة ابن الزبير والسدى والضحاك وغير واحد وقال العوفى عن ابن عباس: الريش اللباس والعيش والنعيم وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم الرياش الجمال وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أصبغ عن أبى العلاء الشامى قال لبس أبو أمامة ثوبا جديدا فلما بلغ ترقوته قال الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله ﷺ « من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيا وميتا » ورواه الترمذى وابن ماجه من رواية يزيد بن هارون عن أصبغ هو ابن زيد الجهنى وقد وثقه يحيى بن معين وغيره وشيخه أبو العلاء الشامى لا يعرف إلا بهذا الحديث ولكن لم يخرجه أحد والله أعلم وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا محمد بن عبيد حدثنا مختار بن نافع التمار عن أبى مطر أنه رأى عليا رضى الله عنه أتى غلاما حدثا فاشترى منه قميصا بثلاثة دراهم ولبسه فما بلغ الرسغين إلى الكعبين يقول حين لبسه الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى فقال هذا شىء ترويه عن نفسك أو عن النبى ﷺ قال هذا شىء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة « الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى » رواه الإمام أحمد وقوله تعالى ( ولباس التقوى ذلك خير ) قرأ بعضهم ولباس التقوى بالنصب وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وذلك خبره واختلف المفسرون فى معناه فقال عكرمة يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة رواه ابن أبى حاتم وقال زيد بن على والسدى وقتادة وابن جريج ولباس التقوى الإيمان وقال العوفى عن ابن عباس العمل الصالح قال الديال بن عمرو عن ابن عباس هو السمت الحسن فى الوجه وعن عروة بن الزبير لباس التقوى خشية الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ولباس التقوى يتقى الله فيوارى عورته فذاك لباس التقوى وكلها متقاربة ويؤيد ذلك الحديث الذى رواه ابن جرير حيث قال حدثنى المثنى حدثنا إسحق بن الحجاج حدثنى إسحق بن إسماعيل عن سليمان بن أرقم عن الحسن قال رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص فوهى محلول الزر وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام ثم قال يا أيها الناس اتقوا الله فى هذه السرائر فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « والذى نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيرا فخير وإن شرا فشر » ثم قرأ هذه الآية ( وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله ) قال السمت الحسن هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم وفيه ضعف وقد روى الأئمة الشافعى وأحمد والبخارى فى كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصرى أنه سمع أمير المؤمنين عثمان ابن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام يوم الجمعة على المنبر وأما المرفوع منه فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى

فى معجمه الكبير له شاهدا من وجه آخر حيث قال حدثنا (١)

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يحذر تعالى بنى آدم من إبليس وقبيله مبيناً لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام فى سعيه فى إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم إلى دار التعب والعناء والتسبب فى هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه وما هذا إلا عن عداوة أكيدة وهذا كقوله تعالى ( أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا )

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

قال مجاهد كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة على قلبها النسعة أو الشىء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله ( وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ) الآية قلت كانت العرب ماعدا قريشا لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها وكانت قريش وهم الحمس يطوفون فى ثيابهم ومن أعاره أحمسى ثوبا طاف فيه ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ومن لم يجد ثوبا جديداً ولا أعاره أحمسى ثوبا طاف عريانا وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئا ليستره بعض الستر فتقول .

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال ( وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ) فقال تعالى ردا عليهم ( قل ) أى يا محمد لمن ادعى ذلك ( إن الله لا يأمر بالفحشاء ) أى هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة والله لا يأمر بمثل ذلك ( أتقولون على الله مالا تعلمون ) أى أتسندون إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته وقوله تعالى ( قل أمر ربى بالقسط ) أى بالعدل والاستقامة ( وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ) أى أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له فى عبادته فانه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صوابا موافقاً للشريعة وأن يكون خالصا من الشرك وقوله تعالى ( كما بدأكم تعودون ) إلى قوله ( الضلالة ) اختلف فى معنى قوله ( كما بدأكم تعودون ) فقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ( كما بدأكم تعودون ) يحييكم بعد موتكم وقال الحسن البصرى كما بدأكم فى الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء وقال قتادة ( كما بدأكم تعودون ) قال بدأ خلقهم ولم يكونوا شيئا ثم ذهبوا ثم يعيدهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما بدأكم أولا كذلك يعيدكم آخرا واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير وأيده بما رواه من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج كلاهما عن المغيرة ابن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال « يا أيها الناس إنكم

(١) كذا بهامش النسخة الأميرية : هنا بياض فى الأصل بمقدار نصف صحيفة وانظر النسخ الصحيحة التامة .

تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث شعبة وفى حديث البخارى أيضا من حديث الثورى به وقال ورقاء بن إياس أبو يزيد عن مجاهد ( كما بدأكم تعودون ) قال يبعث المسلم مسلما والكافر كافراً وقال أبو العالية ( كما بدأكم تعودون ) ردوا إلى علمه فيهم وقال سعيد بن جبير ( كما بدأكم تعودون ) كما كتب عليكم تكونون وفى رواية كما كنتم عليه تكونون وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله تعالى ( كما بدأكم تعودون ) من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدؤا عليه وقال السدى ( كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ) يقول ( كما بدأكم تعودون ) كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله ( كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ) قال إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا كما قال ( هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ) ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا قلت ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود فى صحيح البخارى « فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » . وقال أبو القاسم البغوى حدثنا على بن الجعد حدثنا أبو غسان عن أبى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وانه من أهل الجنة وإنما الأعمال بالخواتيم » هذا قطعة من حديث البخارى من حديث أبى غسان محمد بن مطرف المدنى فى قصة قزمان يوم أحد وقال ابن جرير حدثنى ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال « تبعث كل نفس على ما كانت عليه » وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن الأعمش به ولفظه « يبعث كل عبد على مامات عليه » وعن ابن عباس مثله قلت ويتأيد بحديث ابن مسعود قلت ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى ( فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها ) وما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى « إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » الحديث، ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر فى ثانى الحال وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله فى غرائزهم وفطرهم ومع هذا قدر أن منهم شقيا ومنهم سعيدا ( هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ) وفى الحديث « كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » وقدر الله نافذ فى بريته فانه هو ( الذى قدر فهدى ) و ( الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ) وفى الصحيحين « فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » ولهذا قال تعالى ( فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ) ثم علل ذلك فقال ( إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ) الآية قال ابن جرير وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عنادا منه لربه فيها لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل وهو يحسب أنه مهتد وفريق الهدى فرق وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية .

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم والنسائى وابن جرير واللفظ له من حديث شعبة عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء الرجال بالنهار والنساء بالليل وكانت المرأة تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فقال الله تعالى ( خذوا زينتكم عند كل مسجد ) وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله ( خذوا زينتكم عند كل مسجد ) الآية قال كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة والزينة اللباس وهو ما يوارى السوأة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير وقتادة والسدى الضحاك ومالك عن الزهرى وغير واحد من أئمة السلف فى تفسيرها أنها نزلت فى طوائف المشركين بالبيت عراة وقد روى الحافظ بن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعى عن قتادة عن أنس مرفوعا أنها نزلت فى الصلاة فى النعال ولكن فى صحته نظر والله أعلم ، ولهذه الآية وما ورد فى معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك ومن أفضل اللباس البياض كما قال الإمام أحمد حدثنا على بن عاصم حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير وصححه عن ابن عباس مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم وإن خير أكحالكم الأثمد فانه يجلو البصر وينبت الشعر » هذا حديث جيد الاسناد رجاله على شرط مسلم ، ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث عبد الله بن عثمان بن خيثم به وقال الترمذى حسن صحيح ، وللإمام أحمد أيضا وأهل السنن بإسناد جيد عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم » وروى الطبرانى بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين أن تميما الدارى اشترى رداء بألف وكان يصلى فيه ، وقوله تعالى ( وكلوا واشربوا ) الآية قال بعض السلف جمع الله الطب كله فى نصف آية ( وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ) وقال البخارى قال ابن عباس كل ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : أحل الله الأكل والشرب مالم يكن سرفا أو مخيلة ، إسناده صحيح ، وقال الإمام أحمد حدثنا بهز حدثنا همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده » ورواه النسائى وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال « كلوا وتصدقوا والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا سليمان بن سليم الكلبى حدثنا يحيى بن جابر الطائى سمعت المقدام بن معد يكرب الكندى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فان كان فاعلا لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » ورواه النسائى والترمذى من طرق عن يحيى بن جابر به وقال الترمذى حسن وفى نسخة حسن صحيح وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا سويد بن عبد العزيز حدثنا بقية عن يوسف بن أبى كثير عن نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت » ورواه الدارقطنى فى الافراد وقال هذا حديث غريب تفرد به بقية ، وقال السدى كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك ما أقاموا فى الموسم فقال الله تعالى لهم ( كلوا واشربوا ) الآية يقول لاتسرفوا فى التحريم وقال مجاهد أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ( ولا تسرفوا ) يقول ولا تأكلوا حراما ذلك الاسراف ، وقال عطاء الخراسانى عن ابن عباس قوله ( وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين ) فى الطعام والشراب ، وقال ابن جرير وقوله ( إنه لا يحب المسرفين ) يقول الله تعالى ( إن الله لايحب المعتدين ) حده فى حلال أو حرام الغالين فيما أحل بأحلال الحرام

أو بتحريم الحلال ولكنه يجب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذى أمر به

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ردا على من حرم شيئا من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم (من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) الآية أى هى مخلوقة لمن آمن بالله وعبده فى الحياة الدنيا وإن شركهم فيها الكفار حسا فى الدنيا فهى لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار فان الجنة محرمة على الكافرين قال أبو القاسم الطبرانى حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين القاضى حدثنا يحيى الحمانى حدثنا يعقوب القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون فأنزل الله (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) فأمروا بالثياب

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله » أخرجاه فى الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن شقيق أبى وائل عن عبد الله بن مسعود وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن فى سورة الأنعام وقوله ( والإثم والبغى بغير الحق) قال السدى أما الاثم فالمعصية والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق وقال مجاهد الاثم المعاصى كلها وأخبر أن الباغى بغيه على نفسه وحاصل ما فسر به الاثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه والبغى هو التعدى إلى الناس فحرم الله هذا وهذا وقوله تعالى ( وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ) أى تجعلوا له شركاء فى عبادته ( وأن تقولوا على الله ما تعلمون ) من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدا ونحو ذلك مما لا علم لكم به كقوله ( فاجتنبوا الرجس من الأوثان ) الآية

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى ( ولكل أمة ) أى قرن وجيل ( أجل فإذا جاء أجلهم ) أى ميقاتهم المقدر لهم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) ثم أنذر تعالى بنى آدم أنه سيبعث إليهم رسلا يقصون عليهم آياته ويشر وحذر فقال ( فمن اتقى واصلح ) أى ترك المحرمات وفعل الطاعات ( فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ) أى كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) أى ماكثون فيها مكثا مخلدا

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

يقول ( فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ) أى لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) اختلف المفسرون فى معناه فقال العوفى عن ابن عباس ينالهم ما كتب عليهم وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسود وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول نصيبهم من الأعمال من عمل خيرا جزى به ومن عمل شرا جزى به وقال مجاهد ما وعدوا به من خير وشر وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد واختاره ابن جرير وقال محمد بن كعب القرظى ( أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب )قال عمله ورزقه وعمره وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا القول قوى فى المعنى والسياق يدل عليه وهو قوله ( حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ) ونظير المعنى فى هذه الآية كقوله (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ) وقوله ( ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ) الآية وقوله ( حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ) الآية يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار يقولون لهم أين الذين كنتم تشركون بهم فى الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه قالوا ( ضلوا عنا ) أى ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ( وشهدوا على أنفسهم ) أى أقروا واعترفوا على أنفسهم (أنهم كانوا كافرين )

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته ( ادخلوا فى أمم ) أى من أمثالكم وعلى صفاتكم ( قد خلت من قبلكم ) أى من الأمم السالفة الكافرة ( من الجن والإنس فى النار) يحتمل أن يكون بدلا من قوله فى أمم ويحتمل أن يكون فى أمم أى مع أمم وقوله ( كلما دخلت أمة لعنت أختها ) كما قال الخليل عليه السلام ( ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ) الآية ، وقوله تعالى ( إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ) وقوله (حتى إذا ادارکوا فيها جميعا ) أى اجتمعوا فيها كلهم (قالت أخراهم لأولاهم ) أى أخراهم دخولا وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبوعون لأنهم أشد جرما من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون ( ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ) أى أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى ( يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب ) الآية وقوله ( قال لكل ضعف ) أى قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه كقوله ( الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا ) الآية وقوله ( وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم )وقوله ( ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ) الآية (وقالت أولاهم لأخراهم ) أى قال المتبوعون للأتباع ( فما كان لكم علينا من فضل ) قال السدى فقد ضللتم كما ضللنا ( فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ) وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم فى حال محشرهم فى قوله تعالى ( ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار

إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون )

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

قوله (لاتفتح لهم أبواب السماء ) قيل المراد لايرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء قاله مجاهد وسعيد بن جبير ورواه العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس وكذا رواه الثورى عن ليث عن عطاء عن ابن عباس ، وقيل المراد لاتفتح لأرواحهم أبواب السماء رواه الضحاك عن ابن عباس وقاله السدى وغير واحد ويؤيده ماقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبوبكر بن عياش عن الأعمش عن المنهال هو ابن عمرو عن زاذان عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء فيصعدون بها فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لاتفتح لهم أبواب السماء ) الآية هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبوداود والنسائى وابن ماجه من طرق عن المنهال بن عمرو به وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير وفى يده عود ينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال « استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثة ثم قال - إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدّ البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان - قال - فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله عزوجل اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فانى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربى الله فيقولان له مادينك فيقول دينى الاسلام فيقولان له ماهذا الرجل الذى بعث فيكم فيقولان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولان له وما عملك فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد البصر - قال - ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه يجىء بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى - قال - وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال الى الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب قال فتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من

الملائكة إلا قالوا ماهذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — ( لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ) فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحا — ثم قرأ — ( ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ) فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لاأدرى فيقولان مادينك فيقول هاه هاه لاأدرى فيقولان ماهذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لاأدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول من أنت فوجهك الوجه يجىء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لاتقم الساعة » وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه وفيه حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عزوجل أن يعرج بروحه من قبلهم وفى آخره ثم يقيض له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين قال البراء ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فرش من النار وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه وابن جرير واللفظ له من حديث محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقولون فلان فيقال مرحبا بالنفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فيقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل وإذا كان الرجل السوء قالوا اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقولون فلان فيقولون لامرحبا بالنفس الخبيثة التى كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فإنه لم يفتح لك أبواب السماء فترسل بين السماء والأرض فتصير إلى القبر » وقد قال ابن جرير فى قوله ( لاتفتح له أبواب السماء ) لاتفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم وهذا فيه جمع بين القولين والله أعلم ، وقوله تعالى ( ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ) هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير قال ابن مسعود هو الجمل ابن الناقة وفى رواية زوج الناقة وقال الحسن البصرى حتى يدخل البعير فى خرق الابرة وكذا قال أبو العالية والضحاك وكذا روى على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس انه كان يقرؤها يلج الجمل فى سم الحياط بضم الجيم وتشديد الميم يعنى الحبل الغليظ فى خرق الابرة وهذا اختيار سعيد بن جبير وفى رواية أنه قرأ حتى يلج الجمل يعنى قلوس السفن وهى الحبال الغلاظ ، وقوله ( لهم من جهنم مهاد ) قال محمد بن كعب القرظى ( لهم من جهنم مهاد ) قال الفرش ( ومن فوقهم غواش ) قال اللحف وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدى ( وكذلك نجزى الظالمين )

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال ( والذين آمنوا وعملوا الصالحات ) أى آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد ( أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها ) نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال ( لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا مافى صدورهم من غل ) أى من حسد وبغض كما جاء فى صحيح البخارى من حديث قتادة عن أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أدل منه بمسكنه كان فى الدنيا » وقال السدى فى قوله ( ونزعنا مافى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار ) الآية إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع مافى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبدا ، وقد روى أبو إسحق عن عاصم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب نحو من هذا كما سيأتى فى قوله تعالى ( وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ) إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان ، وقال قتادة: قال على رضى الله عنه إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم ( ونزعنا مافى صدورهم من غل ) رواه ابن جرير وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن إسرائيل قال سمعت الحسن يقول قال على : فينا والله أهل بدر نزلت ( ونزعنا مافى صدرهم من غل ) وروى النسائى وابن مردويه واللفظ له من حديث أبى بكر بن عياش عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هدانى فيكون له شكرا وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هدانى فيكون له حسرة » ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم أورثتموها بما كنتم تعملون ، أى بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل »

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا فى منازلهم (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا) أن ههنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق أى قالوا لهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا قالوا نعم كما أخبر تعالى فى سورة الصافات عن الذى كان له قرين من الكفار ( فاطلع فرآه فى سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ) أى ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم ( هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ) وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى « يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ـ وسمى رءوسهم ـ هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فانى وجدت ما وعدنى ربى حقا» وقال عمر يا رسول الله تخاطب قوما قد جيفوا فقال «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا »

وقوله تعالى ( فأذن مؤذن بينهم) أى أعلم معلم ونادى مناد ( أن لعنة الله على الظالمين ) أى مستقرة عليهم ثم وصفهم

بقوله (الذين يصدون عن سبيل ويبغونها عوجا) أى يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد (وهم بالآخرة كافرون) أى وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة كافرون أى جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حسابا عليه ولا عقابا فهم شر الناس أقوالا وأعمالا

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجابا وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، قال ابن جرير وهو السور الذى قال الله تعالى فيه (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) وهو الأعراف الذى قال الله تعالى فيه (وعلى الأعراف رجال) ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله تعالى (وبينهما حجاب) هو السور وهو الأعراف وقال مجاهد الأعراف حجاب بين الجنة والنار سور له باب ، قال ابن جرير والأعراف جمع عرف وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفا ، وإنما قيل لعرف الديك عرفا لارتفاعه . حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن عيينة عن عبد الله بن أبى يزيد سمع ابن عباس يقول الأعراف هو الشىء المشرف وقال الثورى عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال الأعراف سور كعرف الديك ، وفى روايه عن ابن عباس الأعراف جمع : تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار ، وفى رواية عنه هو سور بين الجنة والنار ، وكذا قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير ، وقال السدى إنما سمى الأعراف أعرافا لأن أصحابه يعرفون الناس ، واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله ، وقد جاء فى حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن إسماعيل حدثنا عبيد بن الحسن حدثنا سليمان بن داود حدثنا النعمان بن عبد السلام حدثنا شيخ لنا يقال له أبو عباد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته فقال « أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه من وجه آخر عن سعيد بن سلمة عن أبى الحسام عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب الأعراف فقال « إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم فقتلوا فى سبيل الله » وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معشر حدثنا يحيى بن شبل عن يحيى بن عبد الرحمن المزنى عن أبيه قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال « هم ناس قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله » ورواه ابن مردويه وابن جرير وابن أبى حاتم من طرق عن أبى معشر به ، وكذا رواه ابن ماجه مرفوعا من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر . وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن الشعبى عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف قال فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، قال فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم ، وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا يونس بن أبى إسحق قال : قال الشعبى أرسل إلىّ عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش فإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا فقلت لهما إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة فقالا هات فقلت إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة (فإذا صرفت

أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ) فبينماهم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم اذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم . وقال عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي قال : قال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قول الله ( فمن ثقلت موازينه ) الآيتين ثم قال الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح قال ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار ( قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ) تعوذوا بالله من منازلهم قال فأما أصحاب الحسنات فانهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ويعطى كل عبد يومئذ نوراً وكل أمة نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة فلما رأى أهل الجنة مالقي المنافقون قالوا ( ربنا أتمم لنا نورنا ) وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهنالك يقول الله تعالى ( لم يدخلوها وهم يطمعون فكان الطمع دخولا قال فقال ابن مسعود: إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم يقول هلك من غلبت آحاده عشراته رواه ابن جرير وقال أيضا حدثني ابن وكيع حدثنا ابن حميد قالا حدثنا جرير عن منصور عن حبيب بن أبي ثابت عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس قال الأعراف: السور الذي بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف بذلك المكان حتى إذا بدا الله أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال : تمنوا ماشئتم ، فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم : لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً ، فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنة وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن يحيى بن المغيرة عن جرير به وقد رواه سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن مجاهد وعن عبدالله بن الحارث من قوله وهذا أصح والله أعلم وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد وقال سعيد بن داود حدثني جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال « هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم » وهذا مرسل حسن ، وقيل هم أولاد الزنا حكاه القرطبي وروى الحافظ بن عساكر في ترجمة الوليد بن موسى عن شيبة ابن عثمان عن عروة بن رويم عن الحسن عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنهم فقال على الأعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ فسألناه وما الأعراف فقال حائط الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار رواه البيهقي عن ابن بشران عن علي بن محمد المصري عن يوسف ابن يزيد عن الوليد بن موسى به ، وقال سفيان الثوري عن خصيف عن مجاهد قال أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن سليمان التيمي عن أبي مجلز في قوله تعالى ( وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ) قال هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار قال ( ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ) قال فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة ( ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ) وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ماذهبوا اليه وكذا قول مجاهد إنهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضا والله أعلم ، وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولا منها انهم شهدوا أنهم صلحاء تهرعوا من فزع الآخرة وخلق يطلعون على أخبار الناس وقيل هم أنبياء وقيل هم ملائكة وقوله تعالى ( يعرفون كلا بسيماهم ) قال

على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه وكذا روى الضحاك عنه ، وقال العوفى عن ابن عباس أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا من فى الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها وهم داخلوها إن شاء الله وكذا قال مجاهد والضحاك والسدى والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، وقال معمر عن الحسن إنه تلا هذه الآية ( لم يدخلوها وهم يطمعون ) قال والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم وقال قتادة قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع وقوله ( وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ) قال الضحاك عن ابن عباس إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال السدى وإذا مروا بهم يعنى بأصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال عكرمة تحدد وجوههم للنار فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله ( وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ) فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ( قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين )

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

يقول الله تعالى إخبارا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم فى النار بسيماهم ( ما أغنى عنكم جمعكم ) أى كثرتكم ( وما كنتم تستكبرون ) أى لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ( أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أصحاب الأعراف ( ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ) وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سعد حدثنى أبى حدثنى عمى حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس ( قالوا ما أغنى عنكم جمعكم ) الآية قال فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار قال الله لأهل التكبر والأموال ( أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ) وقال حذيفة إن أصحاب الأعراف قوم تكافئت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة فأتوا آدم فقالوا يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك فقال هل تعلمون أن أحدا خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته اليه غضبه وسجدت له الملائكة غيرى ؟ فيقولون لا فيقول ماعلمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا ابنى إبراهيم فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وسلم فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فيقول تعلمون من أحد اتخذه الله خليلا هل تعلمون أن أحدا أحرقه قومه بالنار فى الله غيرى ؟ فيقولون لا فيقول ماعلمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا ابنى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقول هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليما وقربه نجيا غيرى فيقولون لا فيقول ماعلمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا عيسى فيأتونه عليه السلام فيقولون له اشفع لنا عند ربك فيقول هل تعلمون أحدا خلقه الله من غير أب(١) فيقولون لا فيقول هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله غيرى ؟ قال فيقولون لا فيقول أنا حجيج نفسى ماعلمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيأتونى فأضرب بيدى على صدرى ثم أقول أنا لها ثم أمشى حتى أقف بين يدى العرش فآتى ربى عز وجل فيفتح لى من الثناء مالم يسمع السامعون بمثله قط ثم أسجد فيقال لى يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى ثم أثنى على ربى عز وجل ثم أخر ساجدا فيقال لى ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول ربى أمتى فيقول هم لك فلا يبقى نبى مرسل ولا ملك مقرب إلا غبطنى بذلك المقام وهو المقام المحمود فآتى بهم الجنة فأستفتح فيفتح لى ولهم

(١) لم يرد فى النسخ هنا كلمة غيرى .

فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك وحصباؤه الياقوت فيغتسلون منه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ويبقى فى صدورهم شامات بيض يعرفون بها يقال مساكين أهل الجنة

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك قال السدى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ) يعنى الطعام وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يستطعمونهم ويستسقونهم ، وقال الثورى عن عثمان الثقفى عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قال: ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول له قد احترقت فأفض على من الماء فيقال لهم أجيبوهم فيقولون ( إن الله حرمهما على الكافرين ) وروى من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس مثله سواء وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ( إن الله حرمهما على الكافرين) يعنى طعام الجنة وشرابها ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا نصر بن على أخبرنا موسى بن المغيرة حدثنا أبو موسى الصفار فى دار عمرو بن مسلم قال سألت ابن عباس أو سئل أى الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ « أفضل الصدقة الماء ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » وقال أيضاً حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح قال لما مرض أبو طالب قالوا له لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بعنقود من الجنة لعله أن يشفيك به فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبى ﷺ فقال أبو بكر إن الله حرمهما على الكافرين ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه فى الدنيا باتخاذهم الدين لهوا ولعبا واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة ، وقوله ( فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ) أى يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شىء ولا ينساه كما قال تعالى ( فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ) وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله ( نسوا الله فنسيهم ) وقال ( كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ) وقال تعالى ( وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ) وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله ( فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ) قال نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر ، وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا ، وقال مجاهد نتركهم فى النار ، وقال السدى نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا ، وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول بلى فيقول أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول لا فيقول الله تعالى فاليوم أنساك كما نسيتنى

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن اعذاره إلى المشركين بارسال الرسل إليهم بالكتاب الذى جاء به الرسول وانه كتاب مفصل مبين كقوله (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ) الآية ، وقوله (فصلناه على علم) للعالمين أى على علم منا بما فصلناه

به كقوله ( أنزله بعلمه) قال ابن جرير وهـذه الآيه مردودة على قوله ( كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ) الآية ( ولقد جئناهم بكتاب ) الآية وهذا الذى قاله فيـه نظر فانه قد طال الفصل ولا دليل عليـه وإنمـا الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة فى الآخرة ذكر أنه قد أزاح عللهم فى الدنيا بارسال الرسل وإنزال الكتب كقوله ( وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ) ولهـذا قال ( هل ينظرون إلا تأويله ) أى ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار قاله مجاهد وغير واحد وقال مالك: ثوابه، وقال الربيع لا يزال يجىء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ قوله و( يوم يأتى تأويله ) أى يوم القيامة قاله ابن عباس ( يقول الذين نسوه من قبل ) أى تركوا العمل به وتناسوه فى الدار الدنيا ( قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ) أى فى خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيـه (أو نرد ) إلى الدار الدنيا ( فنعمل غير الذى كنا نعمل ) كقوله ( ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون المؤمنين * بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبـل ولو ردوا لعادوا لمـا نهوا عنه وإنهم لكاذبون ) كما قال ههنا (قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ) أى خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ( وضل عنهم ما كانوا يفترون ) أى ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك فى سته أيام كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن والستة الأيام هى الأحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام واختلفوا فى هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الاذهان أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهـد والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس ، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ومنه سمى السبت وهو القطع فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال حدثنا حجاج حـدثنا ابن جريج أخبرنى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبى هريرة قال أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال « خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعـد العصر يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » فقد رواه مسلم بن الحجاج فى صحيحه والنسائى من غير وجه عن حجاج وهو ابن محمد الاعور عن ابن جريج به وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قد قال فى ستة أيام ولهذا تكلم البخارى وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعا والله أعلم

وأما قوله تعالى ( ثم استوى على العرش ) فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعى والثورى والليث بن سعد والشافعى وأحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهـان المشبهين منفى عن الله فان الله لا يشبهه شىء من خلقه و(ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى قال من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى ، وقوله تعالى ( يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا ) أى يذهب ظلام هـذا بضياء هـذا وضياء هذا بظلام هذا وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا أى سريعا

لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه كقوله ( وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ) فقوله ( ولا الليل سابق النهار ) أى لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو فى أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال ( يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ) منهم من نصب ومنهم من رفع وكلاهما قريب المعنى أى الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ولهذا قال منبها ( ألا له الخلق والأمر ) أى له الملك والتصرف ( تبارك الله رب العالمين ) كقوله ( تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ) الآية قال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا إسحق حدثنا هشام أبو عبد الرحمن حدثنا بقية بن الوليد حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصارى عن عبد العزيز الشامى عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ « من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط عمله ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئا فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه » لقوله ( ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ) وفى الدعاء المأثور عن أبى الدرداء وروى مرفوعا « اللهم لك الملك كله ولك الحمد كله وإليك يرجع الأمر كله أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله »

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم فقال ( ادعوا ربكم تضرعا وخفية ) قيل معناه تذللا واستكانة ، وخيفة كقوله ( واذكر ربك فى نفسك ) الآية وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إن الذى تدعون سميع قريب » الحديث ، وقال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله ( تضرعا وخفية ) قال السر وقال ابن جرير تضرعا تذللا واستكانة لطاعته وخفية يقول بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارا مراءاة وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزور وما يشعرون به ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبدا ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول ( ادعوا ربكم تضرعا وخيفة ) وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال ( إذ نادى ربه نداء خفيا ) وقال ابن جريج يكره رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء ويؤمر بالضرع والاستكانة ثم روى عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله ( إنه لا يحب المعتدين ) فى الدعاء ولا فى غيره وقال أبو مجلز ( إنه لا يحب المعتدين ) لا يسأل منازل الأنبياء ، وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا شعبة عن زياد بن مخراق سمعت أبا نعامة عن مولى لسعد أن سعدا سمع ابنا له يدعو وهو يقول اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوا من هذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها فقال لقد سألت الله خيرا كثيرا وتعوذت به من شر كثير وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء - وفى لفظ - يعتدون فى الطهور والدعاء - وقرأ هذه الآية ( ادعوا ربكم تضرعا ) الآية - وإن بحسبك أن تقول اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل » ورواه أبو داود من حديث شعبة عن زياد بن مخراق عن أبى نعامة عن مولى لسعد عن سعد فذكره والله أعلم ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا الحريرى عن أبى نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يا بنى سل الله الجنة وعذ به من النار

فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور » وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان به وأخرجه أبوداود عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن سعيد بن إياس الجريري عن أبي نعامة واسمه قيس بن عباية الحنفي البصري وهو إسناد حسن لا بأس به والله أعلم ، وقوله تعالى ( ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ) ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضره بعد الاصلاح فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الافساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال ( وادعوه خوفا وطمعا ) أي خوفا مما عنده من وبيل العقاب وطمعا فيما عنده من جزيل الثواب ثم قال ( إن رحمت الله قريب من المحسنين ) أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى ( ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ) الآية وقال قريب ولم يقل قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فلهذا قال قريب من المحسنين وقال مطر الوراق استشجروا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين رواه ابن أبي حاتم

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر نبه تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال ( وهو الذي يرسل الرياح نشرا ) أي متنشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ومنهم من قرأ بشرا كقوله ( ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ) وقوله ( بين يدي رحمته ) أي بين يدي المطر كما قال ( وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ) وقال ( فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ) وقوله ( حتى إذا أقلت سحابا ثقالا ) أي حملت الرياح سحابا ثقالا أي من كثرة مائها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد ابن عمرو بن نفيل رحمه الله

وأسلمت وجهي لمن أسلمت * له المزن تحمل عذبا زلالا وأسلمت وجهي لمن أسلمت * له الأرض تحمل صخرا ثقالا

وقوله (سقناه لبلد ميت ) أي إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها كقوله ( وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ) الآية ولهذا قال ( فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى ) أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميما يوم القيامة ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوما فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلا ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال ( لعلكم تذكرون ) وقوله ( والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ) أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعا حسنا كقوله ( وأنبتها نباتا حسنا ) ( والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ) قال مجاهد وغيره كالسباخ ونحوها وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، وقال البخاري حدثنا محمد بن العلاء حدثنا حماد ابن أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ « مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا ورعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » رواه مسلم والنسائي من طرق عن أبي أسامة حماد بن أسامة به

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فانه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو إدريس النبي عليه السلام فيما يزعمون وهو أول من خط بالقلم ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهم السلام هكذا نسبه محمد بن إسحق وغير واحد من أئمة النسب قال محمد بن إسحق ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل وقال يزيد الرقاشي إنما سمي نوح لكثرة ماناح على نفسه وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورا أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال ( يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ) أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ( قال الملأ من قومه ) أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم ( إنا لنراك في ضلال مبين ) أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله ( وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ) (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ) إلى غير ذلك من الآيات ( قال ياقوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ) أي ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه ( أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون ) وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغا فصيحا ناصحا عالما بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا « أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون ؟ » قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول « اللهم اشهد اللهم اشهد»

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن نوح أنه قال لقومه ( أو عجبتم ) الآية أي لا تعجبوا من هذا فان هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفا وإحسانا إليكم لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ( ولعلكم ترحمون ) قال الله تعالى ( فكذبوه ) أي تمادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه في موضع آخر ( فأنجيناه والذين معه في الفلك ) أي السفينة كما قال : فأنجيناه وأصحاب السفينة ( وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ) كما قال ( مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ) وقوله ( إنهم كانوا قوما عمين ) أي عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله ( إنا لننصر رسلنا)الآية وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين

والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين وقال مالك عن زيد بن أسلم كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ماعذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز وقال ابن وهب بلغني عن ابن عباس أنه نجا مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم وكان لسانه عربيا رواه ابن أبى حاتم وروى متصلا من وجه آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى وكما أرسلنا إلى قوم نوح كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا قال محمد بن إسحق هم ولد عاد ابن إرم بن عوص بن سام بن نوح ( قلت ) هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد فى البر كما قال تعالى ( ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد ) وذلك لشهدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى ( فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ) وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهى جبال الرمل قال محمد بن إسحق عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيبا أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه ، قال لا ولكنى قد حدثت عنه فقال الحضرمى وما شأنه يا أمير المؤمنين قال فيه قبر هود عليه السلام رواه ابن جرير ، وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن فان هودا عليه السلام دفن هناك وقد كان من أشرف قومه نسبا لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم وكانوا من أشد الأمم تكذيبا للحق ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه ( قال الملأ الذين كفروا من قومه ) والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم ( إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ) أى فى ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والاقبال على عبادة الله وحده كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا ( أجعل الآلهة إلهاً واحدا ) الآية ( قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ) أى لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شىء فهو رب كل شىء ومليكه ( أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ) وهذه الصفات التى يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة ( أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ) أى لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمدوا الله على ذاكم ( واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ) أى واذكروا نعمة الله عليكم فى جعلكم من ذرية نوح الذى أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ( وزادكم فى الخلق بسطة ) أى زاد طولكم على الناس بسطة أى جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله فى قصة طالوت (وزاده بسطة فى العلم والجسم) ( واذكروا آلاء الله ) أى نعمه ومننه عليكم ( لعلكم تفلحون) والآلاء جمع إلى وقيل ألى

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ

قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده) الآية كقول الكفار من قريش (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقد ذكر محمد بن إسحق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناما فصنم يقال له صمد وآخر يقال له الهنا[1] ولهذا قال هود عليه السلام (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) أى قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس قيل هو مقلوب من رجز وعن ابن عباس معناه سخط وغضب (أتجادلونني فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أى أتحاجونى فى هذه الأصنام التى سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وهى لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا ولهذا قال (ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ولهذا عقبه بقوله (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم فى أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال فى الآية الأخرى (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية) لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشلغ رأسه حتى تبينه من بين جثته ولهذا قال (كأنهم أعجاز نخل خاوية) وقال محمد بن إسحق كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله إليهم هودا عليه السلام وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعاً فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس وهم يسير يكتمون إيمانهم فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه وأكثروا فى الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع كلهم هود فقال (أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) أى بجنون (قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) قال محمد بن إسحق فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاود[2] بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت له أم من قوم عاد واسمها جلهذة[3] ابنة الخيبرى[4] قال فبعثت عاد وفدا قريبا من سبعين رجلا إلى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان: قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم به فقال :

ألا ياقيل ويحك قم فهينم * لعل الله يصبحنا غماما * فيسقى أرض عاد إن عادا
قد امسوا لا يبينون الكلاما * من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما

(١) فى المكية : وصوابها الهباء . (٢) فى نسخة الأزهر : لاوم بالميم . (٣) فى تفسير البغوى : فى النسخة الهندية كلهدة . (٤) فى نسخة الأزهر : الخيرى

وقد كانت نساؤهم بخير * فقد أمست نساؤهم غيامى * وإن الوحش تأتيهم جهارا
ولا تخشى لعادى سهاما * وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم * نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم * ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز فأنشأه الله سحابات ثلاثا بيضاء وسوداء وحمراء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال : اخترت هذه السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا رمددا ، لاتبقى من عاد أحدا لا والدا تترك ولا ولدا ، إلا جعلته همدا ، إلا بنى الوذية المهندا ، قال وبنوالوذية بطن من عاد يقيمون بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قالوهم من بقى من أنسالهم وذراريهم عادالآخرة قال وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التى اختارها قيل ابن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول ( بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء ) أى تهلك كل شيء مرت به فكان أول من أبصرمافيها وعرف أنهاريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها مميد(١) فلما تبينت مافيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا مارأيت يامميد ؟ قالت ريحا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً كما قال الله تعالى والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك ، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكرلى ومن معه من المؤمنين فى حظيرة مايصيبه ومن معه الا ماتلين عليه الجلود وتلذ الأنفس وانها لتمر على عاد بالظعن مابين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة بطولها وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى ( ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ )

وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده قريب مما أورده محمدبن إسحق بن يسار رحمه الله ، وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبوالمنذر سلام بن سليمان النحوى حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن الحارث البكرى قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررت بالربذة فإذا بعجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت لى ياعبد الله إن لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة هل أنت مبلغى إليه قال فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد سيفا بين يدى رسول الله ﷺ فقلت ماشأن الناس ؟ قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال فجلست فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه فأذن لى فدخلت وسلمت فقال هل بينكم وبين تميم شيء قلت نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتنى أن أحملها اليك وهاهى بالباب فأذن لها فدخلت فقلت يارسول الله ان رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت وقالت يارسول الله فالى أين يضطر مضطرك قال قلت: ان مثلى مثل ماقال الأول : معزى حملت حتفها ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد قال لى « وما وافد عاد ؟ » وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه قلت إن عادا قحطوا فبعثوا وافدا لهم يقال له قيل فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال اللهم إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه ، فمرت به سحابات سود فنودى منها اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودى منها خذها رمادا رمددا ، لاتبقى من عاد أحدا قال فما بلغنى أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر مايجرى فى خاتمى هذا حتى هلكوا قال أبووائل وصدق قال وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدالهم قالوا لاتكن كوافد عاد هكذا رواه الإمام أحمد فى المسند ، ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به نحوه ، ورواه النسائى من حديث سلام ابن أبى المنذر عن عاصم وهوابن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضا عن أبى وائل عن الحارث بن حسان البكرى به ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن زيد بن حباب به ووقع عنده عن الحارث بن يزيد البكرى فذكره ورواه أيضا

(١) فى النسخة المكية مهد ، وفى البغوى مهدد .

عن أبى كريب عن أبى بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث بن حسان البكرى فذكره ولم أر فى النسخة أبا وائل والله أعلم

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك فى سنة تسع قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا لها القدور فأمرهم النبى ﷺ فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال « إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم » وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيحين من غير وجه ، وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا يزيد بن هارون المسعودى عن إسماعيل بن واسط عن محمد بن أبى كبشة الأنمارى عن أبيه قال لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس « الصلاة جامعة » قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعنزة وهو «يقول ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم نعجب منهم يا رسول الله ؟ قال «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك . رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فان الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا» لم يخرجه أحد من أصحاب السنن وأبو كبشة اسمه عمر بن سعد ويقال عامر بن سعد والله أعلم ، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبى الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال « لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت — يعنى الناقة — ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أحمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحداً كان فى حرم الله» فقالوا من هو يا رسول الله قال: «أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» وهذا الحديث ليس فى شىء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم . قوله تعالى ( وإلى ثمود ) أى ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ( قال ياقوم

اعبدوا الله مالكم من إله غيره) فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى ( وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ) وقال ( ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ) وقوله ( قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ) أى قد جاءتكم حجة من الله على صدق ماجئتكم به وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر بن جلهس وكان جندع بن عمرو بن عم يقال له : شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس وكان من أشراف ثمود وأفاضلها فأراد أن يسلم أيضا فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم فقال فى ذلك رجل من مؤمنى ثمود يقال له مهوش بن عشمة بن الدميل رحمه الله

وكانت عصبة من آل عمرو * إلى دين النبى دعوا شهابا * عزيز ثمود كلهم جميعا * فهم بأن يجيب فلو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً * وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا * ولكن الغواة من آل حجر * تولوا بعد رشدهم ذيابا

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوما وتدعه لهم يوما وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال فى الآية الأخرى ( ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ) وقال تعالى ( هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ) وكانت تسرح فى بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقا هائلا ومنظراً رائعا إذا مرت بأنعامهم نفرت منها فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبى عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال انهم اتفقوا كلهم على قتلها ، قال قتادة بلغنى أن الذى قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء فى خدورهن وعلى الصبيان قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى ( فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ) وقال ( وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ) وقال ( فعقروا الناقة ) فأسند ذلك على مجموع القبيلة فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم ، وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها عنيزة ابنة غنم بن مجلز وتكنى أم عثمان كانت عجوزا كافرة وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام وكانت لها بنات حسان ومال جزيل وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود وامرأة أخرى يقال له صدقة[1] بنت المحيا بن زهير بن المختار ذات حسب ومال وجمال وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة فدعت صدقة رجلا يقال له الحباب فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحيا فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جذع وكان رجلا أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه كان ولد زنية وأنه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه وهو سالف وإنما هو من رجل يقال له صهياد ولكن ولد على فراش سالف وقالت له أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقة فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعة رهط وهم الذين قال الله تعالى ( وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ) وكانوا رؤساء فى قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها فطاوعتهم على ذلك فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار ابن سالف فى أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع فى أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت بنت غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها فسفرت عن وجهها لقدار وزمرته وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورعت رغاة واحدة تحذر سقبها ثم طعن

(١) النسخة المكية : صروف .

فى لبتها فنحرها وانطلق سقبها وهو فصيلها حتى أتى جبلا منيعا فصعد أعلى صخرة فيه ورغا فروى عبدالرزاق عن معمر عمن سمع الحسن البصرى أنه قال يارب أين أمى ويقال إنه رغا ثلاث مرات وإنه دخل فى صخرة فغاب فيها ويقال إنهم اتبعوه فعقروه مع أمه فالله أعلم . فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبر صالحا عليه السلام فجاءهم وهم مجتمعون فلما رأى الناقة بكى وقال (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) الآية وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح وقالوا إن كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) الآية فلما عزموا على ذلك وتواطئوا عليه وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبى الله فأرسل الله سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كماوعدهم صالح عليه السلام وأصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة وأصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه عياذا بالله من ذلك لايدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس فى ساعة واحدة (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى صرعى لا أرواح فيهم ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير لا ذكر ولا أنثى قالوا إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة ابنة السلق ويقال لها الذريعة وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شىء فأتت حيا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت قال علماء التفسير ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضى الله عنهم إلا أن رجلا يقال له أبو رغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما إذ ذاك فى الحرم فلم يصبه شىء فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله وقد تقدم فى أول القصة حديث جابر بن عبد الله فى ذلك وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف قال عبد الرزاق عن معمر أخبرنى إسماعيل بن أمية أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغال فقال « أتدرون من هذا ؟ » قالو الله ورسوله أعلم قال « هذا قبر أبى رغال رجل من ثمود كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن » وقال عبد الرزاق قال معمر قال الزهرى أبو رغال أبو ثقيف هذا مرسل من هذا الوجه ، وقدروى متصلا من وجه آخر كما قال محمد بن إسحق عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبى بجير قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال « هذا قبر أبى رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم فدفع عنه فلما خرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن » وهكذا رواه أبو داود عن يحيى بن معين عن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن ابن إسحق به قال شيخنا أبو الحجاج المزى وهو حديث حسن عزيز (قلت) تفرد بوصله بجير بن أبى بجير هذا وهو شيخ لايعرف إلا بهذا الحديث ، قال يحيى بن معين ولم أسمع أحدا روى عنه غير إسماعيل بن أمية (قلت) وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم فى رفع هذا الحديث . وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو مما أخذه من الزاملتين قال شيخنا أبو الحجاج بعد أن عرضت عليه ذلك وهذا محتمل والله أعلم

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق

وإعراضهم عن الهدى إلى العمى قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثا ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول « يا أبا جهل بن هشام ياعتبة بن ربيعة ياشيبة ابن ربيعة ويافلان بن فلان هل وجدتم ماوعد ربكم حقا فإنى وجدت ماوعدنى ربى حقا » فقال له عمر يارسول الله ماتكلم من أقوام قد جيفوا فقال « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لايجيبون » وفى السيرة أنه عليه السلام قال لهم « بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم كذبتمونى وصدقنى الناس وأخرجتمونى وآوانى الناس وقاتلتمونى ونصرنى الناس فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم » وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه ( لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ) أى فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لاتحبون الحق ولا تتبعون ناصحا ولهذا قال ( ولكن لاتحبون الناصحين ) وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبى هلكت أمته كان يذهب فيقيم فى الحرم حرم مكة والله أعلم، وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لما مر رسول الله ﷺ بوادى عسفان حين حج قال ( يا أبا بكر أى واد هذا ؟ » قال هذا وادى عسفان قال « لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمهن الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق » هذا حديث غريب من هذا الوجه لم يخرجه أحد منهم

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

يقول تعالى ( و ) لقد أرسلنا ( لوطا ) أو تقديره ( و ) اذكر ( لوطا إذ قال لقومه ) ولوط هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليهما السلام وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الاناث وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله قال عمرو بن دينار فى قوله ( ماسبقكم بها من أحد من العالمين ) قال مانزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى بانى جامع دمشق لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ماظننت أن ذكرا يعلو ذكرا ولهذا قال لهم لوط عليه السلام ( أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ) أى عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل لانه وضع الشىء فى غير محله ولهذا قال لهم فى الآية الأخرى ( هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين ) فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا اليه بأنهم لايشتهونهن ( قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ) أى لقد علمت أنه لاأرب لنا فى النساء ولا إرادة وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

أى ما أجابوا لوطا إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم فأخرجه الله تعالى سالما وأهلكهم فى أرضهم صاغرين مهانين ، وقوله تعالى ( إنهم أناس يتطهرون ) قال قتادة عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس أيضاً

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى فأنجينا لوطا وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى ( فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ) إلا امرأته فانها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجا من البلد ، ومنهم من يقول بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ههنا ( إلا امرأته كانت من الغابرين ) أى الباقين وقيل من الهالكين وهو تفسير باللازم ، وقوله ( وأمطرنا عليهم مطرا ) مفسر بقوله ( وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ) ولهذا قال ( فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ) أى انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصى الله عز وجل ويكذب رسله وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصنا أو غير محصن وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الدراوردى عن عمرو بن أبى عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وقال آخرون هو كالزانى فان كان محصنا رجم ، وإن لم يكن محصنا جلد مائة جلدة وهو القول الآخر للشافعى ، وأما إتيان النساء فى الأدبار فهو اللوطية الصغرى وهو حرام باجماع العلماء إلا قولا شاذا لبعض السلف وقد ورد فى النهى عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال محمد بن إسحق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال واسمه بالسريانية يثرون ( قلت ) مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى ( ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ) وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة ( قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ) هذه دعوة الرسل كلهم قد جاءتكم بينة من ربكم ، أى قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به ، ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أى لا يخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا كما قال تعالى ( ويل للمطففين — إلى قوله — لرب العالمين ) وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد نسأل الله العافية منه ، ثم قال تعالى إخبارا عن شعيب الذى يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسى والمعنوى بقوله ( ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ) أى تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم قال السدى وغيره : كانوا عشارين ، وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد ( ولا

تقعدوا بكل صراط توعدون ) أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه والأول أظهر لأنه قال ( بكل صراط ) وهو الطريق وهذا الثانى هو قوله ( وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ) أى وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة ( واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ) أى كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك ( وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ) أى من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله . وقوله ( وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ) أى قد اختلفتم على (فاصبروا ) أى انتظروا ( حتى يحكم الله بيننا ) وبينكم أى يفصل ( وهو خير الحاكمين ) فانه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبا ومن معه من المؤمنين فى توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالنفى عن القرية أو الاكراه على الرجوع فى ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه ، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة ، وقوله (أو لو كنا كارهين؟) يقول أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه فانا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله فى جعل الشركاء معه أندادا وهذا تنفير منه عن اتباعهم ( وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ) وهذا رد إلى الله مستقيم فانه يعلم كل شىء وقد أحاط بكل شىء علما ( على الله توكلنا ) أى فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر ( ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ) أى احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم ( وأنت خير الفاتحين ) أى خير الحاكمين ، فانك العادل الذى لا يجور أبداً

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا ( لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون ) فلهذا عقبه بقوله ( فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ) أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء كما أخبر عنهم فى سورة هود فقال ( ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ) والمناسبة هناك والله أعلم أنهم لما تهكموا به فى قولهم ( أصلاتك تأمرك ) الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم ، وقال تعالى إخبارا عنهم فى سورة الشعراء ( فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ) وما ذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة ( فأسقط علينا كسفا من السماء ) الآية ، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام ( فأصبحوا فى دارهم جاثمين ) ثم قال تعالى ( كأن لم يغنوا فيها ) أى كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلا لقيلهم ( الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين )

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

أى فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال وقال مقرعا لهم وموبخا ( ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ) أى قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بماجئتكم به فلهذا قال ( فكيف آسى على قوم كافرين ؟ )

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء . يعنى بالبأساء مايصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء مايصيبهم من فقر وحاجة ونحوذلك لعلهم يضرعون ، أى يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف مانزل بهم . وتقدير الكلام انه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئا من الذى أراد منهم فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه ولهذا قال ( ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ) أى حولنا الحال من شدة إلى رخاء ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ومن فقر إلى غنى ليشكروا على ذلك فما فعلوا وقوله ( حتى عفوا ) أى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم يقال عفا الشىء إذا كثر . ( وقالوا قدمس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون ) يقول تعالى ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نجع فيهم لاهذا ولا هذا ولا انتهوا بهذا ولا بهذا ، وقالوا قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا فى قديم الزمان والدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالين وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت فى الصحيحين « عجبا للمؤمن لايقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له » فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، ولهذا جاء فى الحديث « لايزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيا من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار لايدرى فيم ربطه أهله ولافيم أرسلوه » أوكما قال ، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله ( فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون ) أى أخذناهم بالعقوبة بغتة ، أى على بغتة وعدم شعور منهم أى أخذناهم فجأة كما فى الحديث « موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر »

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل كقوله تعالى ( فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ) أى ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس فإنهم آمنوا وذلك بعد ماعاينوا العذاب كما قال تعالى ( وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين ) وقال تعالى ( وما أرسلنا فى قرية من نذير ) الآية وقوله تعالى ( ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ) أى آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ( لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ) أى قطر السماء ونبات الأرض قال تعالى ( ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ) أى ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ثم قال تعالى محوفا ومحذرا من مخالفة أوامره والتجرؤ على

زواجره (أفأمن أهل القرى) أى الكافرة (أن يأتيهم بأسنا) أى عذابنا ونكالنا (بياتا) أى ليلا (وهم نائمون * أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) أى فى حال شغلهم وغفلتهم (أفأمنوا مكر الله) أى بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) أولم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم وكذا قال مجاهد وغيره وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيرها يقول تعالى أولم يتبين للذين يستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعما لهم وعتوا على ربهم (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) يقول أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم (ونطبع على قلوبهم) يقول ونختم على قلوبهم (فهم لا يسمعون) موعظة ولا تذكيرا (قلت) وهكذا قال تعالى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) وقال تعالى (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) وقال (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) الآية وقال تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) أى هل ترى لهم شخصا أو تسمع لهم صوتا وقال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين * ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) وقال تعالى (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) وقال تعالى (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) وقال تعالى (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه وحصول نعمه لأوليائه ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾

لما قص تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين وأنه تعالى أعذر اليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى (تلك القرى نقص عليك) أى يا محمد (من أنبائها) أى من أخبارها (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) أى الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقوله تعالى (فما كانوا ليؤمنوا بما

كذبوا من قبل ) الباء سببية أى فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم حكاه ابن عطية رحمه الله وهومتجه حسن كقوله ( وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ) الآية ولهذا قال هنا ( كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وماوجدنا لأكثرهم ) أى لأكثر الأمم الماضية ( من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ) أى ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال والعهد الذى أخذه هو ماجبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع وفى الفطر السليمة خلاف ذلك وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك كما جاء فى صحيح مسلم يقول الله تعالى « إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » الحديث وقال تعالى فى كتابه العزيز ( وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ) وقوله تعالى ( واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ) وقال تعالى ( ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ) إلى غير ذلك من الآيات وقد قيل فى تفسير قوله تعالى ( فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ) ما روى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله ( فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ) قال كان فى علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق أى فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك وكذا قال الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب عن أنس واختاره ابن جرير وقال السدى ( فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ) قال ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرها وقال مجاهد فى قوله ( فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ) هذا كقوله ( ولو ردوا لعادوا ) الآية

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى ( ثم بعثنا من بعدهم ) أى الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ( موسى بآياتنا ) أى بحجتنا ودلائلنا البينة إلى فرعون وهو ملك مصر فى زمن موسى ( وملئه ) أى قومه ( فظلموا بها ) أى جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعناداً كقوله تعالى ( وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ) أى الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله أى انظر يا محمد كيف فعلنا بهم وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر فقال تعالى ( وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين ) أى أرسلنى الذى هو خالق كل شىء وربه ومليكه ( حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ) فقال بعضهم معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق أى جدير بذلك وحرى به قالوا والباء وعلى يتعاقبان يقال رميت بالقوس وعلى القوس وجاء على حال حسنة وبحال حسنة وقال بعض المفسرين معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق وقرأ آخرون من أهل المدينة حقيق علىّ بمعنى واجب وحق على ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ( قد جئتكم ببينة من ربكم ) أى بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلا على صدق فيما جئتكم به ( فأرسل معى بنى إسرائيل ) أى أطلقهم من أسرك وقهرك ودعهم وعبادة ربك وربهم

فانهم من سلالة نبي كريم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن ( قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ) أى قال فرعون لست بمصدقك فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت فان كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقا فيما ادعيت

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ثعبان مبين) الحية الذكر وكذا قال السدى والضحاك وفى حديث الفتون من رواية يزيد بن هارون بن الأصبغ بن زيد عن القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (فألقى عصاه ) فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل وقال قتادة تحولت حية عظيمة مثل المدينة وقال السدى فى قوله (فإذا هى ثعبان مبين) الثعبان الذكر من الحيات فاتحة فاها واضعة لحيها الأسفل فى الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح يا موسى خذها وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا ، وروى عن عكرمة عن ابن عباس نحو هـذا ، وقال وهب بن منبه لما دخل موسى على فرعون قال له فرعون أعرفك قال نعم قال ( ألم نربك فينا وليدا) قال فرد إليه موسى الذى رد فقال فرعون خذوه فبادر موسى ( فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ) فحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت رواه ابن جرير والإمام أحمد فى كتابه الزهد وابن أبى حاتم وفيه غرابة فى سياقه والله أعلم وقوله ( ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ) أى أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه فإذا هى بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض كما قال تعالى ( وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ) الآية وقال ابن عباس فى حديث الفتون: من غير سوء يعنى من غير برص ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول وكذا قال مجاهد وغير واحد

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

أى قال الملأ وهم والجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعد مارجع إليه روعه واستقر على سرير مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله ( إن هذا لساحر عليم ) فوافقوه وقالوا كمقالته وتشاوروا فى أمره كيف يصنعون فى أمره وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد كلمته وظهور كذبه وافترائه وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم والذى خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى ( ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ) فلما تشاوروا فى شأنه وائتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم فى قوله تعالى

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

قال ابن عباس ( أرجه ) أخره وقال قتادة احبسه (وأرسل) أى ابعث (فى المدائن ) أى فى الأقاليم ومدائن ملكك ( حاشرين ) أى من يحشر لك السحرة من سائر البلاء ويجمعهم وقد كان السحر فى زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء موسى به عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال ( أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ) وقال تعالى ههنا

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء اجزيلا فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده فلما توثقوا من فرعون لعنه الله

﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام فى قولهم ( إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ) أى قبلك كما قال فى الآية الأخرى ( وإما أن نكون أول من ألقى ) فقال لهم موسى عليه السلام ألقوا أى أنتم أولا، قيل الحكمة فى هذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلى بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه فيكون أوقع فى النفوس وكذا كان ولهذا قال تعالى ( فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ) أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال كما قال تعالى ( فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ) قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس : ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا قال فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى وقال محمد بن إسحق صف خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر حباله وعصيه وخرج موسى عليه السلام معه أخوه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمع وفرعون فى مجلسه مع أشراف أهل مملكته ثم قال السحرة (يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم ) فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس بعد ثم ألقى كل رجل منهم ما فى يده من الحبال والعصى فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا وقال السدى كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل ليس رجل منهم إلا ومعه حبل وعصا ( فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ) يقول فرقوهم أى من الفرق وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن هشام الدستوائى حدثنا القاسم بن أبى برة قال جمع فرعون سبعين ألف ساحر فألقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ولهذا قال تعالى ( وجاءوا بسحر عظيم )

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ * وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام فى ذلك الموقف العظيم الذى فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل يأمره بأن يلقى ما فى يمينه وهى عصاه ( فإذا هى تلقف ) أى تأكل ( ما يأفكون ) أى ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل قال ابن عباس فجعلت لا تمر بشىء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شىء من السماء ليس هذا بسحر فخروا سجدا وقالوا ( آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ) وقال محمد بن إسحق جعلت تتبع تلك الحبال والعصى واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادى قليل ولا كثير مما ألقوا ثم أخذها موسى فإذا هى عصا فى يده كما كانت ووقع السحرة سجدا قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون لو كان هذا ساحرا ما غلبنا وقال القاسم ابن أبى برة أوحى الله اليه أن ألق عصاك فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين فاغرفاه يبتلع حبالهم وعصيهم فألقى السحرة عند ذلك سجدا فما رفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِئَايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله ( إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ) أي إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى ( إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ) وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل فان موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ماجاء به فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملأ من قومه وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون . وموسى عليه السلام لايعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تسترا وتدليسا على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى ( فاستخف قومه فأطاعوه ) فان قوما صدقوه في قوله ( أنا ربكم الأعلى ) من أجهل خلق الله وأضلهم ، وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهود عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى ( إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة ) قال التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة فقال له موسى أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ماجئت به حق قال الساحر لآتين غدا بسحر لايغلبه سحر فوالله لئن غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنك حق وفرعون ينظر اليهما قالوا فلهذا قال ماقال ، وقوله ( لتخرجوا منها أهلها ) أي تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم ( فسوف تعلمون ) أي ما أصنع بكم ثم فسر هذا الوعيد بقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ) يعني يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ( ولأصلبنكم أجمعين ) وقال في الآية الأخرى ( في جذوع النخل ) أي على الجذوع قال ابن عباس وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون وقول السحرة ( إنا إلى ربنا منقلبون ) أي قد تحققنا أنا اليه راجعون وعذابه أشد من عذابك ونكاله على ماتدعونا اليه اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله ولهذا قالوا ( ربنا أفرغ علينا صبرا ) أي عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه ( وتوفنا مسلمين ) أي متابعين لنبيك موسى عليه السلام وقالوا لفرعون ( فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ) فكانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء برره ، قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ * قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عما تملأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة ( وقال

الملأ من قوم فرعون) أى لفرعون ( أتذر موسى وقومه ) أى أتدعهم ليفسدوا فى الأرض أى يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك يالله العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون ولهذا قالوا (ويذرك وآلهتك ) قال بعضهم الواوها هنا حالية أى أتذره وقومه يفسدون فى الأرض وقد ترك عبادتك ؟ وقرأ ذلك أبى بن كعب وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك حكاه ابن جرير وقال آخرون هى عاطفة أى أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك وقرأ بعضهم وإلاهتك أى عبادتك وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره وعلى القراءة الأولى قال بعضهم كان لفرعون إله يعبده قال الحسن البصرى كان لفرعون إله يعبده فى السر وقال فى رواية أخرى كان له حنانة فى عنقه معلقة يسجد لها وقال السدى فى قوله تعالى (ويذرك وآلهتك) وآلهته فيما زعم ابن عباس كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها فلذلك أخرج لهم السامرى عجلا جسدا له خوار . فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وهذا أمر ثان بهذا الصنيع وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذرا من وجوده فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون . وهكذا عومل فى صنيعه أيضا لما أراد إذلال بنى إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد : أعزهم الله وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده . ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل ( قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم فى قوله ( إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قال أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ) أى قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك فقال منبها لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه فى ثانى الحال ( عسى ربكم أن يهلك عدوكم ) الآية وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَٰئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ( ولقد أخذنا آل فرعون ) أى اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ( بالسنين ) وهى سنين الجوع بسبب قلة الزروع ( ونقص من الثمرات ) قال مجاهد وهو دون ذلك وقال أبو إسحق عن رجاء بن حيوة كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ( لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة ) أى من الخصب والرزق ( قالوا لنا هذه ) أى هذا لنا بما نستحقه ( وإن تصبهم سيئة ) أى جدب وقحط ( يطيروا بموسى ومن معه) أى هذا بسببهم وما جاءوا به ( ألا إنما طائرهم عند الله ) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ( ألا إنما طائرهم عند الله ) يقول مصائبهم عند الله ( ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال ابن جريج عن ابن عباس قال ( ألا إنما طائرهم عند الله ) أى من قبل الله

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم (مهما

تأتنا بهمن آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ) يقولون أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به قال الله تعالى ( فأرسلنا عليهم الطوفان ) اختلفوا فى معناه فعن ابن عباس فى رواية كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم ، وعن ابن عباس فى رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد الطوفان : الماء والطاعون على كل حال ، وقال ابن جرير حدثنا ابن هشام الرفاعى حدثنا يحيى بن يمان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ « الطوفان الموت » وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن يمان به وهو حديث غريب وقال ابن عباس فى رواية أخرى هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ ( فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ) وأما الجراد فمعروف مشهور وهو مأكول لما ثبت فى الصحيحين عن أبى يعفور قال سألت عبد الله بن أبى أوفى عن الجراد فقال غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد ، وروى الشافعى وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال « أحلت لنا ميتتان ودمان . الحوت والجراد والكبد والطحال » ورواه أبو القاسم البغوى عن داود بن رشيد عن سويد بن عبد العزيز عن أبى تمام الأيلى عن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعا مثله، وروى أبو داود عن محمد بن الفرج عن محمد بن زبرقان الأهوازى عن سليمان التيمى عن أبى عثمان عن سلمان قال سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال « أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه » وإنما تركه عليه السلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه ، وقد روى الحافظ ابن عساكر فى جزء جمعه فى الجراد من حديث أبى سعيد الحسن بن على العدوى حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد حدثنا يحيى بن خالد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ وسلم لا يأكل الجراد ولا الكلوتين ولا الضب من غير أن يحرمها أما الجراد فرجز وعذاب . وأما الكلوتان فلقربهما من البول ، وأما الضب فقال « أتخوف أن يكون مسخا » ثم قال غريب لم أكتبه إلا من هذا الوجه وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشتهيه ويحبه فروى عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن عمر سئل عن الجراد فقال ليت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين نأكله ، وروى ابن ماجه حدثنا أحمد بن منيع عن سفيان بن عيينة عن أبى سعد سعيد بن المرزبان البقال سمع أنس بن مالك يقول كان أزواج النبى ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق ، وقال أبو القاسم البغوى حدثنا داود بن رشيد حدثنا بقية بن الوليد عن يحيى بن يزيد القعنبى حدثنى أبى عن صدى بن عجلان عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ « إن مريم بنت عمران عليها السلام سألت ربها عز وجل أن يطعمها لحما لا دم له فأطعمها الجراد فقالت اللهم أعشه بغير رضاع وتابع بينه بغير شياع » وقال نمير الشياع الصوت وقال أبو بكر بن أبى داود حدثنا أبو بقى هشام بن عبد الملك المزنى حدثنا بقية بن الوليد حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى زهير النميرى قال: قال رسول الله ﷺ « لا تقاتلوا الجراد فانه جند الله الأعظم » غريب جداً وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى ( فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد ) قال كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب ، وروى ابن عساكر من حديث على بن زيد الخرائطى عن محمد بن كثير سمعت الأوزاعى يقول خرجت إلى الصحراء فإذا أنا برجل من جراد فى السماء فإذا برجل راكب على جرادة منها وهو شاك فى الحديد وكلما قال بيده هكذا مال الجراد مع يده وهو يقول الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها ، وروى الحافظ أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريرى حدثنا محمد بن الحسن بن زياد حدثنا أحمد بن عبد الرحيم أخبرنا وكيع عن الأعمش أنبأنا عامر قال سئل شريح القاضى عن الجراد فقال قبح الله الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة رأسها رأس فرس . وعنقها عنق ثور . وصدرها صدر أسد . وجناحها جناح نسر . ورجلاها رجل جمل وذنبها ذنب حية . وبطنها بطن عقرب . وقدمنا عند قوله تعالى ( أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة ) حديث حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربه بالعصى ونحن

محرمون فسألنا رسول الله ﷺ فقال « لا بأس بصيد البحر » وروى ابن ماجه عن هرون الحمانى عن هشام بن القاسم عن زياد بن عبد الله بن علاثة وعن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أنس وجابر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دعا على الجراد قال « اللهم أهلك كباره واقتل صغاره وأفسد بيضه واقطع دابره وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء » فقال له جابر يارسول الله أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ فقال « إنما هو نثرة حوت فى البحر » قال هشام أخبرنى زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال من حقق ذلك إن السمك إذا باض فى ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس أنه يفقس كله جرادا طيارا . وقدمنا عند قوله ( إلا أمم أمثالكم ) حديث عمر رضى الله عنه ان الله خلق ألف أمة ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر وان أولها هلاكا الجراد ، وقال أبو بكر بن أبى داود حدثنا يزيد بن المبارك حدثنا عبد الرحمن بن قيس حدثنا سلم بن سالم حدثنا أبو المغيرة الجوزجانى محمد بن مالك عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ « لاوباء مع السيف ولا لحاء مع الجراد » حديث غريب ، وأما القمل فعن ابن عباس هو السوس الذى يخرج من الحنطة وعنه أنه الدبا وهو الجراد الصغار الذى لاأجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبير القمل دواب سود صغار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : القمل البراغيث ، وقال ابن جرير القمل جمع واحدتها قملة وهى دابة تشبه القمل تأكل الإبل فيما يلغنى وهى التى عناها الأعشى بقوله :

قوم يعالج قملا أبناؤهم * وسلاسلا أجداً وبابا موصدا

قال وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب الحمنان واحدتها حمنانة وهى صغار القردان فوق القمقامة . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن حميد الرازى حدثنا يعقوب القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير قال : لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له : أرسل معى بنى إسرائيل فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئا خافوا أن يكون عذابا فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل فأنبت لهم فى تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ فقالوا هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ ، فلما رأوا أثره فى الكلأ عرفوا أنه لايبقى الزرع ، فقالوا ياموسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل فداسوا وأحرزوا فى البيوت فقالوا قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذى يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة فقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون ماتلقى أنت وقومك من هذا فقال وما عسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع فى فيه ، فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل[1] فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان فى أوعيتهم وجدوه دما عبيطا فشكوا إلى فرعون فقالوا إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا من أين سحرنا ونحن لانجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا فأتوه وقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، وقد روى نحو هذا عن ابن عباس والسدى وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك ، وقال محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولا ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين وأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل . ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ، ثم ركد لايقدرون

(١) كذا فى جميع النسخ ، ولعله سقط منه ، فدعا ربه فكشف عنهم الضفادع .

على أن نحرثوا ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا فلما بلغهم ذلك (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسل معك بنى إسرائيل) فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشىء مما قالوا فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغنى حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشىء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملا حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشىء مما قالوا فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشىء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دما عبيطا. وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن منصور المروزى أنبأنا النضر أنبأنا إسرائيل أنبأنا جابر بن يزيد عن عكرمة عن عبيد الله بن عمر وقال: لا تقتلوا الضفادع فإنها لما أرسلت على قوم فرعون انطلق ضفدع منها فوقع فى تنور فيه نار يطلب بذلك مرضاة الله فأبدلهن الله من هذا أبرد شىء يعلمه من الماء وجعل نقيقهن التسبيح، وروى من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه، وقال زيد بن أسلم: يعنى بالدم الرعاف. رواه ابن أبى حاتم

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم فى اليم وهو البحر الذى فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها كما قال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقال تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين) وعن الحسن البصرى وقتادة فى قوله (مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) يعنى الشام، وقوله (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) قال مجاهد وابن جرير وهى قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقوله (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه) أى وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع (وما كانوا يعرشون) قال ابن عباس ومجاهد (يعرشون) يبنون:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا (فأتوا) أى فمروا (على قوم يعكفون على أصنام لهم). قال بعض المفسرين كانوا من الكنعانيين وقيل كانوا من لخم

قال ابن جرير وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر فلهذا أثار ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا ( يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ) أى تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ( إن هؤلاء متبر ماهم فيه ) أى هالك ( وباطل ماكانوا يعملون ) وروى الإمام أبو جعفر بن جرير فى تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحق وعقيل ومعمر كلهم عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان عن أبى واقد الليثى أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين قال وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال فقلنا يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال « قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون» وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان الديلى عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا نبى الله : اجعل لناهذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبى ﷺ « الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن من قبلكم » أورده ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده مرفوعا

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره وما كانوا فيه من الهوان والذلة وماصاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره وقد تقدم تفسيرها فى البقرة

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة قال المفسرون فصامها موسى عليه السلام وطواها فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين وقد اختلف المفسرون فى هذه العشر ما هى فالأكثرون على أن الثلاثين هى ذو القعدة والعشر عشر ذى الحجة قاله مجاهد ومسروق وابن جريج وروى عن ابن عباس وغيره فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ) فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى (يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ) الآية فحينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الافساد. وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبى شريف كريم على الله له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ

سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكلم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال (رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى) وقد أشكل حرف لن ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفى التأبيد فاستدل به المعتزلة على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقوله تعالى إخبارا عن الكفار (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وقيل انها لنفى التأبيد فى الدنيا جمعا بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية فى الدار الآخرة وقيل إن هذا الكلام فى هذا المقام كالكلام فى قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وقد تقدم ذلك فى الأنعام وفى الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام «يا موسى أنه لا يرانى حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده» ولهذا قال تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) قال أبو جعفر بن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية حدثنا أحمد بن سهيل الواسطى حدثنا قرة بن عيسى حدثنا الأعمش عن رجل عن أنس عن النبى ﷺ قال لما تجلى ربه للجبل أشار باصبعه فجعله دكا وأرانا أبو إسماعيل باصبعه السبابة ، هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم ، ثم قال حدثنى المثنى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد عن ليث عن أنس أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال: هكذا باصبعه ، ووضع النبى ﷺ اصبعه الابهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل هكذا وقع فى هذه الرواية حماد بن سلمة عن ليث عن أنس والمشهور حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس كما قال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال : ووضع الابهام قريباً من طرف خنصره ، قال : فساخ الجبل ، قال حميد لثابت يقول هكذا فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد وقال يقوله رسول الله ﷺ ويقوله أنس وأنا أكتمه ؟ وهكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبرى حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البنانى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ فى قوله (فلما تجلى ربه للجبل) قال : قال : هكذا ، يعنى أنه أخرج طرف الخنصر قال أحمد أرانا معاذ فقال له حميد الطويل ما تريد إلى هذا يا أبا محمد قال فضرب صدره ضربة شديدة وقال من أنت يا حميد وما أنت يا حميد تحدثنى به أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول ما تريد إليه ؟ وهكذا رواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق عن معاذ بن معاذ به وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به ثم قال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من طرق عن حماد بن سلمة به وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه أبو محمد الحسن بن محمد بن على الخلال عن محمد بن على بن سويد عن أبى القاسم البغوى عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة فذكره وقال هذا إسناد صحيح لا علة فيه ، وقد رواه داود بن المحبر عن شعبة عن ثابت عن أنس مرفوعا وهذا ليس بشىء لأن داود بن المحبر كذاب رواه الحافظان أبو القاسم الطبرانى وأبو بكر بن مردويه من طريقين عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أنس مرفوعا بنحوه وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيلمانى عن أبيه عن ابن عمر مرفوعا ولا يصح أيضا، رواه الترمذى وصححه الحاكم وقال على شرط مسلم وقال السدى عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل) قال ما تجلى منه إلا قدر الخنصر (جعله دكا) قال ترابا (وخر موسى صعقا) قال مغشيا عليه رواه ابن جرير وقال قتادة (وخر موسى صعقا) قال ميتاً وقال سفيان الثورى ساخ الجبل فى الأرض حتى وقع فى البحر فهو يذهب معه وقال سنيد عن حجاج بن محمد الأعور عن أبى بكر الهذلى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) انقعر فدخل تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة وجاء فى بعض الأخبار أنه ساخ فى الأرض فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة رواه ابن مردويه وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمر بن شيبة حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكنانى حدثنا

عبد العزيز بن عمران عن معاوية بن عبدالله عن الجلد بن أيوب عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال « لما تجلى الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة بالمدينة أحد وورقان ورضوى ووقع بمكة حراء وثبير وثور » وهذا حديث غريب بل منكر وقال ابن أبي حاتم ذكر عن محمد بن عبدالله بن أبي البلخ حدثنا الهيثم بن خارجة حدثنا عثمان بن حصين بن العلاف عن عروة بن رويم قال كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صما ملساء فلما تجلى الله لموسى على الطور دك وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف وقال الربيع بن أنس (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور صار مثل دك من الدكاك وقال بعضهم جعله دكا أي فتنة وقال مجاهد في قوله (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) فإنه أكبر منك وأشد خلقا (فلما تجلى ربه للجبل جعله) فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى مايصنع الجبل فخر صعقا وقال عكرمة جعله دكا قال نظر الله إلى الجبل فصار صحراً ترابا وقد قرأ بهذا القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير وقد وردفيها حديث مرفوع رواه ابن مردويه والمعروف أن الصعق هو الغشى هاهنا كما فسره ابن عباس وغيره لا كما فسره قتادة بالموت وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة كقوله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون) فان هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشى وهي قوله (فلما أفاق) والافاقة لا تكون إلا عن غشى (قال سبحانك) تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد في الدنيا إلا مات وقوله (تبت إليك) قال مجاهد أن أسألك الرؤية (وأنا أول المؤمنين) قال ابن عباس ومجاهد من بني إسرائيل واختاره ابن جرير وفي رواية أخرى عن ابن عباس (وأنا أول المؤمنين) أنه لا يراك أحد وكذا قال أبو العالية فكان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك انه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة وهذا قول حسن له اتجاه وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هاهنا أثراً طويلا فيه غرائب وعجائب عن محمد بن إسحق بن يسار وكأنه تلقاه من الإسرائيليات والله أعلم ، وقوله (وخر موسى صعقا) فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا فقال حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه ، وقال يا محمد إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي قال « ادعوه » فدعوه قال « لم لطمت وجهه ؟ » قال يارسول الله إني مررت باليهودي فسمعته يقول والذي اصطفى موسى على البشر قال وعلى محمد ؟ قال فقلت وعلى محمد وأخذتني غضبة فلطمته فقال « لاتخيروني من بين الأنبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه وأبوداود في كتاب السنة من سننه من طرق عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني عن أبيه عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري به . وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم والذي اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين فغضب المسلم على اليهودي فلطمه فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترف بذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتخيروني على موسى فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى ممسك بجانب العرش فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل » أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به . وقد روى الحافظ أبوبكر بن أبي الدنيا رحمه الله أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبوبكر الصديق رضي الله عنه ولكن تقدم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار وهذا هو أصح وأصرح والله أعلم والكلام في قوله عليه السلام « لاتخيروني على موسى » كالكلام على قوله « لاتفضلوني على الأنبياء ولا على

يونس بن متى » قيل من باب التواضع وقيل قبل أن يعلم بذلك ، وقيل نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب وقيل على وجه القول بمجرد الرأى والتشهى والله أعلم ، وقوله « فإن الناس يصعقون يوم القيامة » الظاهر أن هذا الصعق يكون فى عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه والله أعلم به وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلى للخلائق الملك الديان كما صعق موسى من تجلى الرب تبارك وتعالى ولهذا قال عليه السلام « فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » وقد روى القاضى عياض فى أوائل كتابه الشفاء بسنده عن محمد بن محمد ابن مرزوق حدثنا قتادة حدثنا الحسن عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا فى الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ» ثم قال ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى انتهى ماقاله وكأنه صحح هذا الحديث وفى صحته نظر ولا تخلو رجال إسناده من مجاهيل لايعرفون ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله حتى ينتهى إلى منتهاه والله أعلم

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذى تستمر شريعته إلى قيام الساعة وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم وبعده فى الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام ثم موسى بن عمران كلم الرحمن عليه السلام ولهذا قال الله تعالى له ( فخذ ما آتيتك ) أى من الكلام والمناجاة ( وكن من الشاكرين ) أى على ذلك ولا نطلب مالا طاقة لك به ثم أخبر تعالى أنه كتب له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء قيل كانت الألواح من جوهر وان الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاما مفصلة مبينة للحلال والحرام وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التى قال الله تعالى ( ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس ) وقيل الألواح أعطيها موسى قبل التوراة فالله أعلم ، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه والله أعلم ( وقوله فخذها بقوة ) أى بعزم على الطاعة ( وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ) قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعد عن عكرمة عن ابن عباس قال أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه وقوله ( سأريكم دار الفاسقين ) أى سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتى كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب ، قال ابن جرير وإنما قال ( سأريكم دار الفاسقين ) كما يقول القائل لمن يخاطبه سأريك غدا إلى مايصير اليه حال من خالف أمرى على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره ، ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصرى وقيل معناه ( سأريكم دار الفاسقين ) أى من أهل الشام وأعطيكم إياها وقيل منازل قوم فرعون والأول أولى والله أعلم لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه والله أعلم

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى ( سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ) أى سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين عن طاعتى ويتكبرون على الناس بغير حق أى كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى ( ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ) وقال تعالى ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) وقال بعض السلف لا ينال العلم حيي ولا مستكبر وقال آخر من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدا ، وقال سفيان بن عيينة فى قوله (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ) قال أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتى قال ابن جرير وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة . قلت ليس هذا بلازم لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد فى حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد فى هذا والله أعلم ، وقوله ( وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ) كما قال تعالى ( إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)وقوله ( وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ) أى وإن ظهر لهم سبيل الرشد أى طريق النجاة لا يسلكوها وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلا ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ) أى كذبت بها قلوبهم (وكانوا عنها غافلين) أى لا يعملون بما فيها . وقوله ( والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم) أى من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله وقوله ( هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ) أى إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التى أسلفوها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وكما تدين تدان .

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل الذى اتخذه لهم السامرى من حلىّ القبط الذى كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلا ثم ألقى فيه القبضة من التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلا جسداً له خوار والخوار صوت البقر وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة (قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل هل صار لحما ودما له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر على قولين والله أعلم ويقال إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به وقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى قال الله تعالى (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا ) وقال فى هذه الآية الكريمة ( ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ) ينكر تعالى عليهم فى ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شىء ومليكه أن عبدوا معه عجلا جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبى داود عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ « حبك الشىء يعمى ويصم » وقوله ( ولما سقط فى أيديهم ) أى ندموا على ما فعلوا ( ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ) وقرأ بعضهم لئن لم ترحمنا بالتاء المثناة من فوق ربنا منادى وتغفر لنا ( لنكونن من الخاسرين ) أى من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ

﴿ ٱلْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى القومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف قال أبو الدرداء الأسف أشد الغضب ( قال بئسما خلفتمونى من بعدى ) يقول بئس ما صنعتم فى عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، وقوله ( أعجلتم أمر ربكم ) يقول استعجلتم مجيئى اليكم وهو مقدر من الله تعالى وقوله ( وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) قيل كانت الألواح من زمرد وقيل من ياقوت وقيل من بردوقيل من سدروفى هذا دلالة على ماجاء فى الحديث «ليس الخبر كالمعاينة » ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبا على قومه وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا وروى ابن جرير عن قتادة فى هذا قولا غريبا لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء وهو جدير بالرد وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة وقوله ( وأخذ برأس أخيه يجره إليه ) خوفا أن يكون قد قصر فى نهيهم كما قال فى الآية الأخرى ( قال يا هارون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمرى * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى * إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ) وقال هاهنا ( ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ) أى لا تسقنى مساقهم ولاتخلطنى معهم وإنما قال : ابن أم ليكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى ( ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى )فعندذلك( قال ) موسى ( رب اغفرلى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين)وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح »

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ * وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أما الغضب الذى نال بنى إسرائيل فى عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضا كما تقدم فى سورة البقرة(فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ) وأما الذلة فأعقبهم ذلك دلا وصغاراً فى الحياة الدنيا وقوله ( وكذلك نجزى المفترين ) نائلة لكل من افترى بدعة فان ذل البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه كما قال الحسن البصرى : إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين : وهكذا روى أيوب السختيانى عن أبى قلابة الجرمى أنه قرأ هذه الآية ( وكذلك نجزى المفترين ) فقال هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة وقال سفيان بن عيينة كل صاحب بدعة ذليل ، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أى ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ولهذا عقب هذه القصة بقوله ( والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك ) أى يا محمد يا رسول التوبة ونبى الرحمة(من بعدها) أى من بعد تلك الفعلة (لغفور رحيم) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا أبان حدثنا قتادة عن عزرة عن الحسن العرنى عن علقمة عن عبدالله بن مسعود أنه سئل عن ذلك يعنى عن الرجل يزنى بالمرأة ثم يتزوجها فتلا هذه الآية ( والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ) فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

يقول تعالى ( ولما سكت ) أى سكن (عن موسى الغضب) أى غضبه على قومه (أخذ الألواح) أى التى كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضبا له ( وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ) يقول كثير من المفسرين إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ولهذا قال بعض السلف فوجد فيها هدى ورحمة ، وأما التفصيل فذهب وزعموا إن رضاضها لم يزل موجودا فى خزائن الملوك من بنى إسرائيل إلى الدولة الإسلامية والله أعلم بصحة هذا . وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها وهى من جوهر الجنة فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها (هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ) ضمن الرهبة معنى الخضوع ولهذا عداها باللام ، وقال قتادة: فى قوله تعالى (أخذ الألواح) قال رب انى أجد فى الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون السابقون أى آخرون فى الخلق سابقون فى دخول الجنة رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم قال رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلون الأعور الكذاب فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد قال رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلها وان ردت عليه فتأكلها السباع والطير وان الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم قال رب فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد. قال رب إنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال قتادة فذكر لنا أن نبى الله موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال اللهم اجعلنى من أمة أحمد .

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا فاختار سبعين رجلا فبرزهم لبدعوا ربهم وكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا مالم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة ( قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ) الآية وقال السدى إن الله أمر موسى أن يأتيه فى ثلاثين من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا ( واختار موسى قومه سبعين رجلا ) على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا ( لن نؤمن لك ) يا موسى ( حتى نرى الله جهرة ) فانك قد كلمته فأرناه ( فأخذتهم الصاعقة ) فماتوا فقام موسى يبكى ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد اهلكت خيارهم (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ) وقال محمد بن إسحق اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاءر به لموسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا يا موسى (لن نؤمن لك حتى

نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة ) وهى الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول ( رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ) قد سفهوا ، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل

وقال سفيان الثورى حدثنى أبو إسحق عن عمارة بن عبيد السلولى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال انطلق موسى وهارون وشبر وشبير فانطلقوا إلى سفح جبل فقام هارون على سرير فتوفاه الله عز وجل فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا له أين هارون قال توفاه الله عز وجل قالوا أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه أو كلمة نحوها قال فاختاروا من شئتم قال فاختاروا سبعين رجلا قال فذلك قوله تعالى ( واختار موسى قومه سبعين رجلا ) فلما انتهوا إليه قالوا يا هارون من قتلك قال ما قتلنى أحد ولكن توفانى الله قالوا يا موسى لن نعصى بعد اليوم فأخذتهم الرجفة قال فجعل موسى عليه السلام يرجع يمينا وشمالا وقال يا رب ( لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ) قال فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم هذا أثر غريب جدا وعمارة بن عبيد هذا لا أعرفه وقد رواه شعبة عن أبى إسحق عن رجل من بنى سلول عن على فذكره وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جرير إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم فى عبادتهم العجل ولا نهوهم ويتوجه هذا القول بقول موسى ( أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ) وقوله ( إنا هى إلا فتنتك ) أى ابتلاؤك واختبارك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف ولا معنى له غير ذلك يقول ان الأمر إلا أمرك وإن الحكم إلا لك فما شئت كان . تضل من تشاء وتهدى من تشاء ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطى لمن منعت ولا مانع لما أعطيت فالملك كله لك والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر وقوله ( أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ) الغفر هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه فى مثله فى المستقبل ( وأنت خير الغافرين ) أى لا يغفر الذنب إلا أنت ( واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ) الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور وهذا لتحصيل المقصود ( واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ) أى أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة وقد تقدم تفسير الحسنة فى سورة البقرة ( إنا هدنا إليك ) أى تبنا ورجعنا وأنبنا إليك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمى والسدى وقتادة وغير واحد وهو كذلك لغة ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبى عن شريك عن جابر عن عبد الله بن يحيى عن على قال إنما سميت اليهود لأنهم قالوا ( إنا هدنا إليك ) جابر هو ابن يزيد الجعفى ضعيف

﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مجيبا لنفسه فى قوله ( إن هى إلا فتنتك ) الآية قال ( عذابى أصيب به من أشار ورحمتى وسعت كل شىء ) أى أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ولى الحكمة والعدل فى كل ذلك سبحانه لا إله إلا هو ، وقوله تعالى ( ورحمتى وسعت كل شىء ) آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله انهم يقولون ( ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ) . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبى حدثنا الجريرى عن أبى عبد الله الجشمى حدثنا جندب هو ابن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال جاء أعرابى فأناخ راحلته ثم علقها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى اللهم ارحمنى ومحمدا ولا تشرك فى رحمتنا أحداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتقولون هذا أضل أم بعيره ألم تسمعوا ماقال ؟ » قالوا بلى قال « لقد حظرت رحمة واسعة ان الله عز وجل خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وانسها وبهائمها وأخر عنده تسعا وتسعين رحمة أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ » رواه أحمد وأبو داود عن على بن نصر عن عبد الصمد بن عبد الوارث

به ، وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان عن أبي عثمان عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » تفرد بإخراجه مسلم فرواه من حديث سليمان هو ابن طرخان وداود بن أبي هند كلاهما عن أبي عثمان واسمه عبد الرحمن بن مل عن سلمان هو الفارسي عن النبي ﷺ به ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن لله مائة رحمة عنده تسعة وتسعون وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق فإذا كان يوم القيامة ضمها اليه » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « لله مائة رحمة فقسم منها جزءا واحدا بين الخلق به يتراحم الناس والوحش والطير » ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية عن الأعمش به ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا أحمد بن يونس حدثنا سعد أبو غيلان الشيباني عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم عن صلة بن زفر عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الفاجر في دينه الأحمق في معيشه والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الذي قد محشته النار بذنبه والذي نفسي بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه » هذا حديث غريب جدا وسعد هذا لا أعرفه ، وقوله ( فسأكتبها للذين يتقون ) الآية يعني فسأوجب حصول رحمتي منة مني وإحسانا إليهم كما قال تعالى ( كتب ربكم على نفسه الرحمة ) وقوله ( للذين يتقون ) أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ( الذين يتقون ) أي الشرك والعظائم من الذنوب قوله ( ويؤتون الزكاة ) قيل زكاة النفوس وقيل الأموال ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكية ( والذين هم بآياتنا يؤمنون ) أي يصدقون

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ) وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم . كما روى الإمام أحمد حدثنا إسماعيل عن الجريري عن أبي صخر العقيلي حدثني رجل من الأعراب . قال جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه قال فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها فقال رسول الله ﷺ « أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي » فقال برأسه هكذا أي لا فقال ابنه اي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم تولى كفنه والصلاة عليه هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس ، وقال الحاكم صاحب المستدرك أخبرنا محمد بن عبد الله ابن إسحق البغوي حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس حدثنا عبد الله بن إدريس عن شرحبيل بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاص الأموي قال بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام فخرجنا حتى قدمنا الغوطة يعني غوطة دمشق فنزلنا على جبلة بن الأيهم الغساني فدخلنا عليه فإذا هو على سرير له فأرسل إلينا برسوله نكلمه فقلنا والله لا نكلم رسولا وإنما بعثنا إلى الملك فإن أذن لنا كلمناه وإلا لم

نكلم الرسول فرجع اليه الرسول فأخبره بذلك قال فأذن لنا فقال تكلموا فكلمه هشام بن العاص ودعاه إلى الإسلام فاذا عليه ثياب سود فقال له هشام وما هذه التي عليك ؟ فقال لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام قلنا ومجلسك هذا والله لنأخذنه منك ولنأخذن ملك الملك الأعظم إن شاء الله أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ قال : لستم بهم بل هم قوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل فكيف صومكم ؟ فأخبرناه فملئ وجهه سوادا فقال قوموا وبعث معنا رسولا إلى الملك فخرجنا حتى إذا كنا قريبا من المدينة قال لنا الذي معنا إن دوابكم هذه لاتدخل مدينة الملك فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال قلنا والله لاندخل إلا عليها فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك فأمرهم أن ندخل على رواحلنا فدخلنا عليها متقلدين سيوفنا حتى انتهينا إلى غرفة له فأنخنا في أصلها وهو ينظر الينا فقلنا لا إله إلا الله والله أكبر فالله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح . قال فأرسل الينا ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم وأرسل الينا أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراشه وعنده بطارقة من الروم وكل شيء في مجلسه أحمر وما حوله حمرة وعليه ثياب من الحمرة فدنونا منه فضحك فقال ماعليكم لوجئتموني بتحيتكم فيما بينكم ؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام فقلنا ان تحيتنا فيما بيننا لاتحل لك تحيتك التي تحيا بها لايحل لنا أن نحييك بها قال كيف تحيتكم فيما بينكم ؟ قلنا السلام عليك قال فكيف تحيون ملككم ؟ قلنا بها قال فكيف يرد عليكم ؟ قلنا بها ، قال فما أعظم كلامكم قلنا لا إله إلا الله والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى رفع رأسه اليها قال فهذه الكلمة التي قلتموها حيث انتفضت الغرفة أكلما قلتموها في بيوتكم انتفضت عليكم غرفكم فلما لا ، مارأيناها فعلت هذا قط إلا عندك قال لوددت أنكم كلما قلتم انتفض كل شيء عليكم وإني قد خرجت من نصف ملكي قلنا لم ؟ قال لأنه كان أيسر لشأنها وأجدر أن لاتكون من أمر النبوة وأنها تكون من حيل الناس ، ثم سألنا عما أراد فأخبرناه ثم قال كيف صلاتكم وصومكم فأخبرناه فقال قوموا فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير فأقمنا ثلاثا فأرسل إلينا ليلا فدخلنا عليه فاستعاد قولنا فأعدناه ثم دعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب ففتح بيتا وفقلا فاستخرج حريرة سوداء فنشرناها فاذا فيها صورة حمراء وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الأليتين لم أر مثل طول عنقه وإذا ليست له لحية وإذا له ضفيرتان أحسن ماخلق الله فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا آدم عليه السلام وإذ هو أكثر الناس شعرا ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء وإذا له شعر كشعر القطط أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا نوح عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة سوداء وإذا فيها رجل شديد البياض حسن العينين صلت الجبين طويل الخد أبيض اللحية كأنه يبتسم فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا إبراهيم عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاذا فيه صورة بيضاء وإذا والله رسول الله ﷺ فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا نعم هذا محمد رسول الله ﷺ قال وبكينا قال والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس وقال والله إنه لهو قلنا نعم إنه لهو كأنك تنظر اليه فأمسك ساعة ينظر اليها ثم قال أما إنه كان آخر البيوت ولكني عجلته لكم لأنظر ماعندكم ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فاذا فيها صورة أدماء سحماء وإذا رجل جعد قطط غائر العينين حديد النظر عابس مترا كب الأسنان متقلص الشفة كأنه غضبان فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا موسى عليه السلام وإلى جنبه صورة تشبهه الا أنه مدهان الرأس عريض الجبين في عينيه قبل فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا هرون بن عمران عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل آدم سبط ربعة كأنه غضبان فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا لوط عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل أبيض مشرب حمرة أقنى خفيف العارضين حسن الوجه فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا إسحق عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة تشبه إسحق إلا أنه على شفته خال فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا يعقوب عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن الوجه أقنى الأنف حسن القامة يعلو وجهه نور يعرف في وجهه الخشوع يضرب إلى الحمرة قال هل تعرفون هذا ؟

قلنا لا قال هذا إسماعيل جد نبيكم ﷺ ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة كصورة آدم كأن وجهه الشمس فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا يوسف عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل أحمر حمش الساقين أخفش العينين ضخم البطن ربعة متقلد سيفا فقال هل تعرفون هذا ! قلنا لا قال هذا داود عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فيها صورة رجل ضخم الأليين طويل الرجلين راكب فرسا فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا سليمان بن داود عليهما السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة بيضاء وإذا شاب شديد سواد اللحية كثير الشعر حسن العينين حسن الوجه فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا عيسى بن مريم عليه السلام ، قلنا من أين لك هذه الصور لأنا نعلم أنها على ماصورت عليه الأنبياء عليهم السلام لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله فقال إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل عليه صورهم فكانت فى خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذوالقرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال ، ثم قال أما والله إن نفسى طابت بالخروج من ملكى وإنى كنت عبدا لأشركم ملكة حتى أموت ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا فلما أتينا أبا بكر الصديق رضى الله عنه فحدثناه بما أرانا وبما قال لنا وما أجازنا قال فبكى أبو بكر ، وقال مسكين لو أراد الله به خيرا لفعل ثم قال أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم واليهود يجدون نعت محمد صلى الله عليه وسلم عندهم ، وهكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقى رحمه الله فى كتاب دلائل النبوة عن الحاكم إجازة فذكره وإسناده لابأس به . وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا عثمان بن عمر حدثنا فليح عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال أجل والله إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن ( يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ) وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى اسمك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لاإله إلا الله ويفتح به قلوبا غلفا وآذانا صما وأعينا عميا . قال عطاء ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلف حرفا إلا أن كعبا قال بلغته قال قلوبا غلوفيا وآذانا صموميا وأعينا عموميا وقد رواه البخارى فى صحيحه عن محمد بن سنان عن فليح عن هلال بن على فذكر باسناده نحوه وزاد بعد قوله ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وذكر حديث عبد الله بن عمرو ثم قال ويقع فى كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب وقد ورد فى بعض الأحاديث مايشبه هذا والله أعلم ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا موسى بن هرون حدثنا محمد بن إدريس بن وراق بن الحميدى حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم من ولد جبير بن مطعم قال حدثتنى أم عثمان بنت سعيد وهى جدى عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير عن أبيه محمد بن جبير عن أبيه محمد جبير بن مطعم قال خرجت تاجرا إلى الشام فلما كنت بأدنى الشام لقينى رجل من أهل الكتاب فقال هل عندكم رجل نبيا قلت نعم فقال هل تعرف صورته إذا رأيتها قلت نعم فأدخلنى بيتا فيه صور فلم أر صورة النبى صلى الله عليه وسلم فبينا أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا فقال فيم أنتم فأخبرناه فذهب بنا إلى منزله فساعة مادخلت نظرت إلى صورة النبى صلى الله عليه وسلم وإذا رجل آخذ بعقب النبى ﷺ قلت من هذا الرجل القابض على عقبه قال إنه لم يكن نبى إلا كان بعده نبى إلاهذا النبى فإنه لانبى بعده وهذا الخليفة بعده وإذا صفة أبى بكر رضى الله عنه وقال أبوداود حدثنا عمر بن حفص أبو عمرو الضرير حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إياس الجريرى أخبرهم عن عبد الله بن شقيق العقيلى عن الأقرع مؤذن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال بعثنى عمر إلى الأسقف فدعوته فقال له عمر هل تجدنى فى الكتاب قال نعم قال كيف تجدنى قال أجدك قرنا فرفع عمر الدرة وقال قرن مه قال قرن حديد أمير شديد قال فكيف تجد الذى بعدى قال أجد خليفة صالحا غير أنه يؤثر قرابته قال عمر يرحم الله عثمان ثلاثا قال كيف تجد الذى بعده قال أحده صدأ حديد قال فوضع عمر يده على رأسه وقال يادفراه يادفراه قال يا أمير المؤمنين إنه خليفة صالح ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول والدم مهراق وقوله تعالى ( يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ) هذه صفة الرسول صلى الله عليه

وسلم فى الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لايأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول ( يا أيها الذين آمنوا ) فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه ، ومن أهم ذلك وأعظمه مابعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لاشريك له والنهى عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال تعالى ( ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ) وقال الإمام أحمد حدثنا أبوعامر هو العقدى عبد الملك بن عمرو حدثنا سليمان هو ابن بلال عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد عن أبى حميد وأبى أسيد رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فانا أبعدكم منه » رواه الإمام أحمد رضى الله عنه بإسناد جيد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبومعاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن على رضى الله عنه قال إذا سمعتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فظنوا به الذى هو أهدى والذى هو أهنى والذى هو أتقى ثم رواه عن يحيى عن ابن سعيد عن مسعر عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن أبى عبد الرحمن عن على رضى الله عنه قال إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثا فظنوا به الذى هو أهداه وأهناه وأتقاه ، وقوله ( ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ) أى يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ويحرم عليهم الخبائث قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله تعالى . قال بعض العلماء فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع فى البدن والدين وكل ماحرمه فهو خبيث ضار فى البدن والدين وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين وأجيب عن ذلك بما لايتسع هذا الموضع له وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلا أن المرجع فى حل المآكل التى لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب فى حال رفاهيتها وكذا فى جانب التحريم إلى ما استخبثته وفيه كلام طويل أيضا ، وقوله ( ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ) أى أنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرى لما بعثهما إلى اليمن « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا » وقال صاحبه أبو برزة الأسلمى إنى صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره وقد كانت الأمم الذين قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز لأمتى ماحدثت به أنفسها مالم تقل أو تعمل » وقال « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولهذا قال أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا ( ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أوأخطأنا ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالاطاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ) وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه قد فعلت قد فعلت ، وقوله ( فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ) أى عظموه ووقروه ، وقوله ( واتبعوا النور الذى أنزل معه ) أى القرآن والوحى الذى جاء به مبلغا إلى الناس ( أولئك هم المفلحون ) أى فى الدنيا والآخرة

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ ( قل ) يامحمد ( يا أيها الناس ) وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربى والعجمى ( إنى رسول الله إليكم جميعا ) أى جميعكم وهذا من شرفه وعظمته صلى الله عليه وسلم أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى ( قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ) وقال

تعالى (ومن يكفر به الأحزاب فالنار موعده) وقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) والآيات فى هذا كثيرة كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم قال البخارى رحمه الله فى تفسير هذه الآية حدثنا عبد الله حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الله ابن العلاء بن زيد حدثنى بسر بن عبدالله حدثنى أبو إدريس الخولانى قال سمعت أبا الدرداء رضى الله عنه يقول : كانت بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه فى وجهه فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله ﷺ « أما صاحبكم هذا فقد غامر » أى غاضب وحاقد قال وندم عمر على ما كان منه فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقص على رسول الله ﷺ الخبر قال أبو الدرداء فغضب رسول الله ﷺ وحعل أبو بكر يقول والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل أنتم تاركوا لى صاحبى ؟ إنى قلت يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت » انفرد به البخارى وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبى زياد عن مقسم عن ابن عباس مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى ولا أقوله فخرا بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئا » إسناد جيد ولم يخرجوه وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا بكر بن مضر عن أبى الهاد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلى فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم « لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلى أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلى إنما يرسل إلى قومه ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بينى وبينهم مسيرة شهر لملأ منى رعبا وأحلت لى الغنائم أكلها وكان من قبلى يعظمون أكلها كانوا يحرقونها وجعلت الأرض مسجدا وطهورا أينما أدركتنى الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلى يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون فى بيعهم وكنائسهم والخامسة هى ما هى قيل لى سل فإن كل نبى قد سأل فأخرت مسألتى إلى يوم القيامة فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله » إسناد جيد قوى أيضا ولم يخرجوه ، وقال أيضاً حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « من سمع بى من أمتى يهودى أو نصرانى فلم يؤمن بى لم يدخل الجنة » وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس وهو سليم بن جبير عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » تفرد به أحمد وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن أبى بردة عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمساً بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وأحلت لى الغنائم ولم تحل لمن كان قبلى ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة وليس من نبى إلا وقد سأل الشفاعة وإنى قد اختبأت شفاعتى ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئاً » وهذا أيضا إسناد صحيح ولم أرهم خرجوه والله أعلم وله شاهد من حديث ابن عمر بسند جيد أيضا وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة

وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » وقوله ( الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت) صفة الله تعالى فى قول رسول الله ﷺ أى الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربه ومليكه الذى بيده الملك والاحياء والاماتة وله الحكم » وقوله ( فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى ) أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ( النبي الأمى ) أى الذى وعدتم به وبشرتم به فى الكتب المتقدمة فانه منعوت بذلك فى كتبهم ولهذا قال النبي الأمى وقوله ( الذى يؤمن بالله وكلماته ) أى يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ( واتبعوه ) أى اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ( لعلكم تهتدون ) أى إلى الصراط المستقيم

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن بنى إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به كما قال تعالى ( من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ) وقال تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ) وقال تعالى ( الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون* وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين* أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ) الآية وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ) الآية وقال تعالى ( إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا )وقد ذكر ابن جرير فى تفسيرها خبرا عجيبا فقال حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا حجاج عن ابن جريج قوله(ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ) قال بلغنى أن بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله عز وجل أن يفرق بينهم وبينهم ففتح الله لهم نفقا فى الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج قال ابن عباس فذلك قوله ( وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ) ووعد الآخرة عيسى بن مريم قال ابن جريج قال ابن عباس ساروا فى السرب سنة ونصفا وقال ابن عيينة عن صدقة أبى الهذيل عن السدى ( ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ) قال قوم بينكم وبينهم نهر من شهد

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

تقدم تفسير هذا كله فى سورة البقرة وهى مدنية وهذا السياق مكى ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا ولله الحمد والمنة

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى ( ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ) الآية يقول تعالى لنبيه صلوات الله

وسلامه عليه ( واسألهم ) أى واسأل عن هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم لئلا يحل بهم ماحل بإخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى أيلة وهى على شاطئ بحر القلزم قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى ( واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ) قال هى قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدى وقال عبدالله بن كثير القارئ سمعنا أنها أيلة وقيل هى مدين وهو رواية عن ابن عباس وقال ابن زيد هى قرية يقال لها معتا بين مدين وعينونا وقوله ( إذ يعدون فى السبت ) أى يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ( إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ) قال الضحاك عن ابن عباس أى ظاهرة على الماء وقال العوفى عن ابن عباس ظاهرة من كل مكان قال ابن جرير وقوله (ويوم لايسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم ) أى نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده واخفائها عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده ( كذلك نبلوهم ) نختبرهم ( بما كانوا يفسقون ) يقول بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله ابن بطة رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن سلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لاترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد فإن أحمد بن محمد بن سلم هذا ذكره الخطيب فى تاريخه ووثقه وباقى رجاله مشهورون ثقات ويصحح الترمذى بمثل هذا الاسناد كثيراً

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ* فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ* فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه فى سورة البقرة وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة ( لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً ) أى لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة فى نهيكم إياهم ، قالت لهم المنكرة ( معذرة إلى ربكم ) قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقديره هذه معذرة وقرأ آخرون بالنصب أى نفعل ذلك ( معذرة إلى ربكم ) أى فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ( ولعلهم يتقون ) يقولون ولعل لهذا الانكار يتقون ماهم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم قال تعالى ( فلما نسوا ماذكروا به ) أى فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ( أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا ) أى ارتكبوا المعصية ( بعذاب بئيس ) فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل فهم لايستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيذموا ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ( وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أومعذبهم عذابا شديداً ) هى قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعا فى ساحل البحر فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها فمضى على ذلك ماشاء الله ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ، فلم يزدادوا إلا غيا وعتوا وجعلت طائفة أخرى تنهاهم فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ( لم تعظون قوما الله مهلكهم )

وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى فقالوا ( معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ) وكل قد كانوا ينهون فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم والذين قالوا معذرة إلى ربكم وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة ، وروى العوفى عن ابن عباس قريبا من هذا ، وقال حماد بن زيد عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس فى الآية قال ما أدرى أنجا الذين قالوا ( لم تعظون قوما الله مهلكهم ) أم لا ؟ قال فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكسانى حلة ، وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج حدثنى رجل عن عكرمة قال جئت ابن عباس يوما وهو يبكى وإذا المصحف فى حجره فأعظمت أن أدنو منه ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعلنى الله فداك ؟ قال فقال هؤلاء الورقات قال وإذا هو فى سورة الأعراف قال تعرف أيلة ؟ قلت نعم قال فانه كان بها حى من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعا بيضاء سمانا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها فى غيره من الأيام فقالت ذلك طائفة منهم وقالت طائفة بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت وقال الأيمنون ويلكم الله ، ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله وقال الأيسرون ( لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ) قال الأيمنون ( معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ) أى ينتهون ، إن ينتهوا فهو أحب الينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم فمضوا على الخطيئة وقال الأيمنون فقد فعلتم يا أعداء الله والله لنأتينكم الليلة فى مدينتكم والله مانراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا فوضعوا سلما وأعلوا سور المدينة رجلا فالتفت اليهم فقال أى عباد الله قردة والله تعادى تعاوى لها أذناب قال ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرود أنسا بها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى فيقول ألم نهكم عن كذا فتقول برأسها أى نعم ثم قرأ ابن عباس ( فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ) قال فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها ، قال قلت جعلنى الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا ( لم تعظون قوما الله مهلكهم ؟ ) قال فأه رلى فكسيت ثوبين غليظين ، وكذا روى مجاهد عنه ، وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا أشهب بن عبد العزيز عن مالك قال زعم ابن رومان أن قوله تعالى ( تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ) قال كانت تأتيهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شىء إلى يوم السبت الآخر فاتخذ لذلك رجل خيطا ووتدا فربط حوتا منها فى الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجد الناس ريحه فأتوه فسألوه عن ذلك فجحدهم فلم يزالوا به حتى قال لهم فانه جلد حوت وجدناه فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ولا أدرى لعله قال ربط حوتين فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجدوا رائحة فجاءوا فسألوه فقال لهم لوشئتم صنعتم كما أصنع فقالوا له وما صنعت ؟ فأخبرهم ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم فأصابهم من المسخ ما أصابهم فغدوا عليهم حيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجبهم فتسوروا عليهم فإذا هم قردة فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به ، وقد قدمنا فى سورة البقرة من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية ولله الحمد والمنة ( القول الثانى ) ان الساكتين كانوا من الهالكين قال محمد ابن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر فاذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل فإذا جاء السبت جاءت شرعا فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ثم إن رجلا منهم أخذ حوتا فخزم أنفه ثم

ضرب له وتدا فى الساحل وربطه وتركه فى الماء ، فلما كان الغد أخـذه فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك فى الأسواق ففعل علانية قال فقالت طائفة للذين ينهونهم ( لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ) فقالوا نسخط أعمالهم ( ولعلهم يتقون * فلما نسوا ماذكروا به — إلى قوله — قردة خاسئين ) قال ابن عباس كانوا أثلاثا ثلث نهوا وثلث قالوا ( لم تعظون قوما الله مهلكهم ) وثلث أصحاب الخطيئة فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم ، وهـذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة فى نجاة الساكتين أولى من القول بهذا لأنه تبين حالهم بعد ذلك والله أعلم ، وقوله تعالى ( وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ) فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا وبئيس فيه قراآت كثيرة ومعناه فى قول مجاهد الشديد . وفى رواية أليم وقال قتادة موجع والكل متقارب والله أعلم ، وقوله ( خاسئين ) أى ذليلين حقيرين مهانين

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

( تأذن ) تفعل من الأذان أى أعلم قاله مجاهد وقال غيره أمر ، وفى قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهـذا أتبعت باللام فى قوله ( ليبعثن عليهم ) أى على اليهود ( إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ) أى بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم ، ويقال إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وكان أول من ضرب الخراج ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج ثم جاء الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية : قال العوفى عن ابن عباس فى تفسير هـذه الآية قال هى المسكنة وأخذ الجزية منهم ، وقال على بن أبى طلحة عنه هى الجزية والذى يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته إلى يوم القيامة ، وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدى وقتادة ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن سعيد بن المسيب قال يستحب أن تبعث الأنباط فى الجزية قلت : ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارا للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام وذلك آخر الزمان وقوله ( إن ربك لسريع العقاب ) أى لمن عصاه وخالف شرعه ( وإنه لغفور رحيم ) أى لمن تاب إليه وأناب وهـذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم فى الأرض أمما أى طوائف وفرقا كما قال ( وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض

فإذا جاء وعدالآخرة جئنابكم لفيفا) ( منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ) أى فيهم الصالح وغير ذلك كقول الجن(وأنامنا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قددا ) ( وبلوناهم ) أى اختبرناهم (بالحسنات والسيئات)أى بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة والعافية والبلاء ( لعلهم يرجعون ) ثم قال تعالى ( فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ) الآية يقول تعالى فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لاخير فيهم وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة وقال مجاهد هم النصارى وقد يكون أعم من ذلك ( يأخذون عرض هذا الأدنى ) أى يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه ، ولهذا قال ( وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ) وكما قال سعيد بن جبير يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله فان عرض ذلك الذنب أخذوه وقال مجاهد فى قوله تعالى ( يأخذون عرض هذا الأدنى ) قال لا يشرف لهم شىء من الدنيا إلا أخذوه حلالا كان أو حراما ويتمنون المغفرة ( ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ) وقال قتادة فى الآية إى والله لخلف سوء ( ورثوا الكتاب ) بعد أنبيائهم ورسلهم أورثهم الله وعهد إليهم ، وقال الله تعالى فى آية أخرى ( فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ) الآية قال ( يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفرلنا ) تمنوا على الله أمانى وغرة يغترون بها ( وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ) لا يشغلهم شىء عن شىء ولا ينهاهم شىء عن ذلك كلما هف لهم شىء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالا كان أو حراما ؛ وقال السدى قوله ( فخلف من بعدهم خلف) إلى قوله ( ودرسوا ما فيه ) قال كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى فى الحكم وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له ما شأنك ترتشى فى الحكم ؟ فيقول سيغفرلى ، فتطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشى ، يقول وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه قال الله تعالى ( ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) الآية يقول تعالى منكرا عليهم فى صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه كقوله ( وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ) وقال ابن جريج قال ابن عباس ( ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ) قال فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها ، وقوله تعالى والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ) يرغبهم فى جزيل ثوابه ويحذرهم من وبيل عقابه أى وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه ( أفلا تعقلون ) يقول أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير ، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى ( والذين يمسكون بالكتاب ) أى اعتصموا به واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره ( وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين )

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله ( وإذ نتقنا الجبل فوقهم ) يقول رفعناه وهو قوله (ورفعنا فوقهم الطور) بميثاقهم وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعته الملائكة فوق رءوسهم وهو قوله (ورفعنا فوقهم الطور ) وقال القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب وأمرهم بالذى أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ( كأنه ظلة ) قال رفعته الملائكة فوق رءوسهم رواه النسائى بطوله. وقال سنيد بن داود فى تفسيره عن حجاج بن محمد عن أبى بكر بن عبد الله قال هذا كتاب أتقبلونه بما فيه فان فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم ومانهاكم ؟ قالوا انشر علينا ما فيها فان كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها قال

اقبلوها بما فيها قالوا لا حتى نعلم مافيها كيف حدودها وفرائضها فراجعوه مرارا فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع فى السماء حتى إذا كان بين رءوسهم وبين السماء قال لهم موسى ألاترون مايقول ربى عز وجل لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل قال فحدثنى الحسن البصرى قال لما نظروا إلى الجبل خركل رجل ساجدا على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من أن يسقط عليه فكذلك ليس اليوم فى الأرض يهودى يسجد إلا على حاجبه الأيسر يقولون هذه السجدة التى رفعت بها العقوبة قال أبوبكر فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده لم يبق على وجه الأرض جبل ولاشجر ولا حجر إلااهتز فليس اليوم يهودى على وجه الأرض صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونغض لها رأسه أى حول كما قال تعالى ( فسينغضون إليك رءوسهم ) والله أعلم

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى ( فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ) وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وقال الإمام أبوجعفر بن جرير رحمه الله حدثنا يونس ابن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية بعد ماقتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال « مابال أقوام يتناولون الذرية » فقال رجل يارسول الله أليسوا أبناء المشركين فقال « إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها » قال الحسن والله لقد قال الله فى كتابه ( وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ) الآية ، وقد رواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به ، وأخرجه النسائى فى سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن قال حدثنى الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك ، وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم : قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به قال فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لاتشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى » أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة به . ( حديث آخر ) قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير يعنى ابن حازم عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال ( ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أوتقولوا - إلى قوله - المبطلون ) وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبدالرحيم صاعقة عن حسين بن محمد المروزى به ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من

حديث حسين بن محمد به إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفا ، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبير به ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير هكذا قال وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه ، وكذا رواه إسماعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كلثوم عن جبير عن أبيه به ، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت والله أعلم . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبي عن أبي هلال عن أبي حمزة الضبعي عن ابن عباس . قال أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أذى من الماء ، وقال أيضا حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة حدثنا أبو مسعود عن جرير قال مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال: فقال يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده فان ابني مجلس ومسئول ففعلت به الذي أمر فلما فرغت قلت يرحمك الله عما يسئل انك من يسأله إياه فال يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قلت يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قال حدثني ابن عباس إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقربه لم ينفعه الميثاق الأول ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم

( حديث آخر ) قال ابن جرير حدثنا عبد الرحمن بن الوليد حدثنا أحمد بن أبي طيبة عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ ( وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريانهم ) قال أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ( ألست بربكم قالوا بلى ) قالت الملائكة ( شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ) أحمد بن أبي طيبة هذا هو أبو محمد الجرجاني قاضي قومس كان أحد الزهاد أخرج له النسائي في سننه وقال أبو حاتم الرازي يكتب حديثه وقال ابن عدي حدث بأحاديث كثيرة غرائب وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم . ( حديث آخر ) قال الإمام أحمد حدثنا روح هو ابن عبادة حدثنا مالك وحدثنا إسحق حدثنا مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ( وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ) الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل قال رسول الله ﷺ « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » وهكذا رواه أبو داود عن القعنبي والنسائي عن قتيبة والترمذي في تفسيرها عن إسحق ابن موسى عن معن وابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب وابن جرير عن روح بن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية أبي مصعب الزبيري كلهم عن الإمام مالك بن أنس به قال الترمذي وهذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جعثم القرشي عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهني عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية ( وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ) فذكره وقال

الحافظ الدارقطنى وقد تابع عمر بن جعثم بن زيد بن سنان أبو فروة الرهاوى وقولهما أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم قلت الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمدا لما جهل حال نعيم ولم يعرفه فانه غير معروف إلا فى هذا الحديث ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ولهذا يرسل كثيرا من المرفوعات ويقطع كثيرا من الموصولات والله أعلم. ( حديث آخر ) قال الترمذى عند تفسيره هذه الآية حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أى رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه قال أى رب من هذا قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أى رب قد وهبت له من عمرى أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت ذريته » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين به وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدث عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال « ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم يا رب لم فعلت هذا بذريتى قال كى تشكر نعمتى وقال آدم يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نورا قال هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك » ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم

( حديث آخر ) قال عبد الرحمن بن قتادة النضرى عن أبيه عن هشام بن حكيم رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال يا رسول الله أتبدأ الأعمال أم قد قضى القضاء ؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم فى كفيه ثم قال هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه

( حديث آخر ) روى جعفر بن الزبير وهو ضعيف عن القاسم عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله فقال يا أصحاب اليمين فقالوا لبيك وسعديك قال ألست بربكم ؟ قالوا بلى قال يا أصحاب الشمال قالوا لبيك وسعديك قال ألست بربكم ؟ قالوا بلى ثم خلط بينهم فقال قائل له يا رب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ثم ردهم فى صلب آدم » رواه ابن مردويه.

( أثر آخر ) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى ( وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ) الآيات قال فجمعهم له يومئذ جميعا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم فى صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ) الآية قال فإنى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة ولم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيرى ولا رب غيرى ولا تشركوا بى شيئا وإنى سأرسل إليكم رسلا لينذروكم عهدى وميثاقى وأنزل عليكم كتبى قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال يا رب لو سويت بين عبادك ؟ قال إنى أحببت أن أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذى يقول تعالى ( وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ) الآية وهو الذى يقول ( فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله) الآية ومن ذلك قال ( هذا نذير من النذر الأولى) ومن ذلك قال ( وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الآية رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير

وابن مردويه فى تفاسيرهم من رواية ابن جعفر الرازى به وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل فى تلك الآثار كلها وبالله المستعان . فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار وأما الاشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفى حديث عبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشعى ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا ولهذا قال ( وإذ أخذ ربك من بنى آدم ) ولم يقل من آدم ( من ظهورهم ) ولم يقل من ظهره ( ذرياتهم ) أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرناً بعد قرن كقوله تعالى ( وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ) وقال ( ويجعلكم خلفاء الأرض ) وقال ( كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ) ثم قال ( وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ) أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا والشهادة تارة تكون بالقول كقوله ( قالوا شهدنا على أنفسنا ) الآية وتارة تكون حالا كقوله تعالى ( ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ) أى حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى ( وإنه على ذلك لشهيد ) كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله ( وآتاكم من كل ما سألتموه ) فالوا ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الاشهاد حجة عليهم فى الاشراك فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه فان قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ولهذا قال ( أن تقولوا ) أى لئلا تقولوا يوم القيامة ( إنا كنا عن هذا ) أى التوحيد ( غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا ) الآية

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

قال عبد الرزاق عن سفيان الثورى عن الأعمش ومنصور عن أبى الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى ( واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ) الآية قال هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم ابن باعوراء وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن ابن عباس هو صيفى ابن الراهب قال قتادة وقال كعب كان رجلا من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان مقيما ببيت المقدس مع الجبارين وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنه هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه الله آياته فتركها ، وقال مالك ابن دينار كان من علماء بنى إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه فى الشدائد بعثه نبى الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس هو بلعم بن باعوراء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وقال ابن جرير حدثنى الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا إسرائيل عن مغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال هو بلعام وقالت ثقيف هو أمية بن أبى الصلت وقال شعبة عن يعلى بن عطاء عن نافع بن عاصم عن عبد الله بن عمرو فى قوله ( واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ) الآية

قال هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت وقد روى من غير وجه عنه وهو صحيح اليه وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه فإنه كان قد اتصل اليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه فانه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله . وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فإن له أشعارا ربانية وحكما وفصاحة ولكنه لم يشرح الله صدره للاسلام . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن أبي سعيد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن وكانت له امرأة لها منها ولد فقالت اجعل لي منها واحدة قال فلك واحدة فما الذي تريدين ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئا آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت وذهبت الدعوات الثلاث وتسمى البسوس ، غريب ، وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام وكان يعلم اسم الله الأكبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف كان مجاب الدعوة ولا يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وأغرب بل أبعد بل أخطأ من قال كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها حكاه ابن جرير عن بعضهم ولا يصح ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه ـ يعني بلعم ـ أتاه بنو عمه وقومه فقالوا إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي ، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه فذلك قوله تعالى (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان) الآية ، وقال السدي لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة) بعث يوشع بن نون نبيا فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام فكان عالما يعلم الاسم الأعظم المكتوم فكفر ـ لعنه الله ـ وأتى الجبارين وقال لهم لا ترهبوا بني إسرائيل فاني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمهن فكان ينكح أتانا له وهو الذي قال الله تعالى (فانسلخ منها) وقوله تعالى (فأتبعه الشيطان) أي استحوذ عليه وعلى أمره فهما أمره امتثل وأطاعه ولهذا قال (فكان من الغاوين) أي من الهالكين الحائرين السائرين وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا محمد بن بكر عن الصلت بن بهرام حدثنا الحسن حدثنا جندب الجبلي في هذا المسجد أن حذيفة يعني ابن اليمان رضي الله عنه حدثه قال : قال رسول الله ﷺ « إن مما أخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الاسلام اعتراه إلى ماشاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك » قال قلت يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي ؟ قال « بل الرامي » هذا إسناد جيد والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ولم يرم بشيء سوى الارجاء وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما

وقوله تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) يقول تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها (ولكنه أخلد إلى الأرض) أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى ، وقال أبو الراهويه في قوله تعالى (ولكنه أخلد إلى الأرض) قال تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان ، وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير وغير واحد ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله وكان من قصة

هذا الرجل ماحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه أنه سئل عن هذه الآية ( واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ) فحدث عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام وكان مجاب الدعوة قال وإن موسى أقبل فى بنى إسرائيل يريد الأرض التى فيها بلعام أو قال الشام قال فرعب الناس منه رعبا شديدا فأتوا بلعام فقالوا ادع الله على هذا الرجل وجيشه قال حتى أؤامر ربى أو حتى أؤامر قال فآمر فى الدعاء عليهم فقيل له لاتدع عليهم فإنهم عبادى وفيهم نبيهم قال فقال لقومه إنى قد آمرت ربى فى الدعاء عليهم وإنى قد نهيت فأهدوا له هدية فقبلها ثم راجعوه فقالوا ادع عليهم فقال حتى أؤامر ربى فآمر فلم يأمره بشىء فقال قد وامرت فلم يأمرنى بشىء فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى قال فأخذ يدعو عليهم فإذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على قومه وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه أو نحوا من ذلك إن شاء الله قال فقالوا مانراك تدعو إلا علينا قال مايجرى على لسانى إلا هكذا ولو دعوت عليه أيضا ما استجيب لى ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم ، إن الله يبغض الزنا وإنهم إن وقعوا فى الزنا هلكوا ورجوت أن يهلكهم الله فأخرجوا النساء تستقبلهم فانهم قوم مسافرون فعسى أن يزنوا فيهلكوا قال ففعلوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال وكان للملك ابنة فذكر من عظمها ما الله أعلم به قال فقال أبوها أو بلعام لاتمكنى نفسك إلا من موسى قال ووقعوا فى الزنا قال فأتاها رأس سبط من أسباط بنى إسرائيل فأرادها على نفسها فقالت ما أنا بممكنة نفسى إلا من موسى فقال إن منزلتى كذا وكذا وإن من حالى كذا وكذا فأرسلت إلى أبيها تستأمره قال فقال لها مكنيه قال ويأتيهما رجل من بنى هرون ومعه الرمح فيطعنهما قال وأيده الله بقوة فانتظمهما جميعا ورفعهما على رمحه فرآهما الناس - أوكما حدث - قال وسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا . قال أبو المعتمر فحدثنى سيار أن بلعاما ركب حمارة له حتى أتى المعلولى أو قال طريقا من المعلولى حعل يضربها ولا تتقدم وقامت عليه فقالت علام تضربنى ؟ أما ترى هذا الذى بين يديك ؟ فإذا الشيطان بين يديه قال فنزل وسجد له قال الله تعالى ( واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها - إلى قوله - لعلهم يتفكرون ) قال فحدثنى بهذا سيار ولا أدرى لعله قد دخل فيه شىء من حديث غيره (قلت) هو بلعام ويقال بلعم بن باعوراء ويقال ابن ابر ، ويقال ابن باعور ابن شهتوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران ويقال ابن حران بن آزر وكان يسكن قرية من فرى البلقاء قال ابن عساكر : وهو الذى كان يعرف اسم الله الأعظم فانسلخ من دينه له ذكر فى القرآن ثم أورد من قصته نحوا مما ذكرنا هاهنا أورده عن وهب وغيره والله أعلم ، وقال محمد بن إسحق بن يسار عن سالم أبى النضر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام اليه فقالوا له هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم قال ويلكم نبى الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ قالوا له مالنا من منزل فلم يزالوا به يرفقونه ويتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فركب حمارة له متوجها إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل وهو جبل حسبان فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يابلعم أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا ؟ تذهب إلى نبى الله والمؤمنين لتدعو عليهم فلم ينزع عنها فضربها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبنى إسرائيل جعل يدعو عليهم ولايدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل فقال له قومه أتدرى يابلعم ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا مالا أملك ، هذا شىء قد غلب الله عليه ، قال واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال ، جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن الى العسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت

امرأة من الكنعانيين اسمها كسبتى - ابنة صور رأس أمته - برجل من عظماء بنى إسرائيل وهو زمرى بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام فلما رآها أعجبته فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال إنى أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها قال أجل هى حرام عليك قال فوالله لا أطيعك[1] فى هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وأرسل الله عز وجل الطاعون فى بنى إسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائبا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفا والمقلل لهم يقول عشرون ألفا فى ساعة من النهار فمن هنالك تعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والزراع واللحى والبكر من كل أموالهم وأنفسها لأنه كان بكر أبيه العيزار ، ففى بلعام بن باعوراء أنزل الله ( واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها — إلى قوله — لعلهم يتفكرون ) وقوله تعالى ( فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ) اختلف المفسرون فى معناه فعلى سياق ابن إسحق عن سالم عن أبى النضر أن بلعاما اندلع لسانه على صدره فتشبهه بالكلب فى لهيثه فى كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر ، وقيل معناه فصار مثله فى ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء كالكلب فى لهيثه فى حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث فى الحالين فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى ( سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ) ( استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ) ونحو ذلك : وقيل معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصرى وغيره وقوله تعالى ( فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ( فاقصص القصص لعلهم ) أى لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له فى إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه فى تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب فى غير طاعة ربه بل دعا به على حزب الرحمن . وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله فى ذلك الزمان ، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ولهذا قال ( لعلهم يتفكرون ) أى فيحذروا أن يكونوا مثله فان الله قد أعطاهم علما وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته وموازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ولهذا من خالف منهم ما فى كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلا فى الدنيا موصولا بذل الآخرة وقوله ( ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ) يقول تعالى ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أى ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لاهمة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيها بالكلب وبئس المثل مثله ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه » وقوله ( أنفسهم كانوا يظلمون ) أى ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم باعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والاقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى

﴿ مَنْ يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

يقول تعالى من هداه الله فانه لا مضل له ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فانه تعالى ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود « إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك

(١) فى نسخة الأزهر : لا نطيعك .

له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

يقول تعالى ( ولقد ذرأنا لجهنم )أى خلقنا وجعلنا لجهنم( كثيراً من الجن والإنس ) أى هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون فانه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ماهم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده فى كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال « إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء »

وفى صحيح مسلم أيضاً من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: دعى النبى صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبى من الأنصار فقلت يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال رسول الله ﷺ « أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم » وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود « ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد » وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال « هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى » والأحاديث فى هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها وقوله تعالى ( لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ) يعنى ليس ينتفعون بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية كما قال تعالى ( وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله ) الآية ، وقال تعالى ( صم بكم عمى فهم لا يرجعون ) هذا فى حق المنافقين ، وقال فى حق الكافرين ( صم بكم عمى فهم لا يعقلون ) ولم يكونوا صما ولا بكما ولا عميا إلا عن الهدى كما قال تعالى ( ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ) وقال (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال ( ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ) وقوله تعالى ( أولئك كالأنعام) أى هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا فى الذى يقيتها فى ظاهر الحياة الدنيا كقوله تعالى ( ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ) أى ومثلهم فى حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول . ولهذا قال فى هؤلاء ( بل هم أضل ) أى من الدواب لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها ، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء ؛ ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فانه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به ، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده ، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ، ولهذا قال تعالى ( أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون )

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لله تسعا وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر »أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج عنه ؛ ورواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب عن أبى حمزة عن أبى الزناد به ، وأخرجه الترمذى فى جامعه عن الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب فذكر بسنده مثله وزاد بعد قوله « يحب الوتر : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور

الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور » ثم قال الترمذى هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث ، ورواه ابن حبان فى صحيحه من طريق صفوان به ، وقد رواه ابن ماجه فى سننه من طريق آخر عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعا فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان ، والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أى أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى والله أعلم ، ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة فى تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل ابن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً » فقيل يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال « بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها » وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بمثله ، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه الأحوذى فى شرح الترمذى أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم فالله أعلم ، وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى ( وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ) قال إلحاد الملحدين أن دعوا اللات فى أسماء الله ، وقال ابن جريج عن مجاهد (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) قال اشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، وقال قتادة يلحدون : يشركون فى أسمائه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس الإلحاد : التكذيب ، وأصل الإلحاد فى كلام العرب العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد فى القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى ( وممن خلقنا ) أى بعض الأمم ( أمة ) قائمة بالحق قولا وعملا ( يهدون بالحق ) يقولونه ويدعون إليه ( وبه يعدلون ) يعملون ويقضون ، وقد جاء فى الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية هى هذه الأمة المحمدية قال سعيد عن قتادة فى تفسير هذه الآية بلغنى أن النبى ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية « هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ( ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ) » وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى ( وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ) قال : قال رسول الله ﷺ « إن من أمتى قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل » وفى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » وفى رواية « حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » وفى رواية « وهم بالشام »

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

يقول تعالى ( والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ) ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شىء كما قال تعالى ( فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ولهذا قال تعالى ( وأملى لهم ) أى وسأملى لهم أى أطول لهم ماهم فيه ( إن كيدى متين ) أى قوى شديد

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى ( أو لم يتفكروا ) هؤلاء المكذبون بآياتنا ( ما بصاحبهم ) يعنى محمداً ﷺ ( من جنة ) أى ليس به جنون بل هو رسول الله حقادعا إلى حق(إن هو إلا نذير مبين ) أى ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعى به كما قال تعالى ( وما صاحبكم بمجنون ) وقال تعالى ( قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) يقول إنما أطلب منكم أن تقوموا قياما خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد مثنى وفرادى أى مجتمعين ومتفرقين ثم تتفكروا فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقا وصدقا ، وقال قتادة بن دعامة ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشا فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً يا بنى فلان يا بنى فلان فحذرهم بأس الله ووقائع الله فقال قائلهم إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح فأنزل الله تعالى ( أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين )

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض وفيما خلق من شىء فيهما فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ومن فعل من لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته ويخلعوا الأنداد والأوثان ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه ، وقوله ( فبأى حديث بعده يؤمنون ) يقول فبأى تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذى أتاهم به من عند الله فى آى كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله عز وجل ؟ وقد روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى وعثمان بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث كلهم عن حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن أبى الصلت عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بى كذا فلما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوقى فإذا أنا برعد وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال هؤلاء الشياطين يحومون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب » على بن زيد بن جدعان له منكرات . ثم قال تعالى

﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يقول تعالى من كتب عليه الضلالة فانه لا يهديه أحد ولو نظر لنفسه فيما نظر فانه لا يجزى عنه شيئاً ( ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ) وكما قال تعالى ( قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون )

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿

يقول تعالى ( يسألونك عن الساعه ) كما قال تعالى ( يسألك الناس عن الساعة ) قيل نزلت فى قريش وقيل فى نفر من اليهود والأول أشبه لأن الآية مكية وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادا لوقوعها وتكذيبا بوجودها كما قال تعالى ( ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ) وقال تعالى ( يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ) وقوله ( أيان مرساها ) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس منتهاها أى متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذى هو أول وقت الساعة ( قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ) أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى فانه هو الذى يجليها لوقتها أى يعلم جلية أمرها ومتى يكون على التحديد لا يعلم ذلك إلا هو تعالى ولهذا قال ( ثقلت فى السموات والأرض ) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله ( ثقلت فى السموات والأرض ) قال ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون قال معمر قال الحسن إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض يقول كبرت عليهم ، وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله ( ثقلت فى السموات والأرض ) قال ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة ، وقال ابن جريج ( ثقلت فى السموات والأرض ) قال إذا جاء انشقت السماء وانتثرت النجوم . وكورت الشمس . وسيرت الجبال وكان ما قال الله عز وجل فذلك ثقلها ، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض كما قال قتادة ، وهو كما قالاه كقوله تعالى ( لا تأتيكم إلا بغتة ) ولا ينفى ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض والله أعلم وقال السدى ( ثقلت فى السموات والأرض ) يقول خفيت فى السموات والأرض فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبى مرسل ( لا تأتيكم إلا بغتة ) يبغتهم قيامها تأتيهم على غفلة وقال قتادة فى قوله تعالى ( لا تأتيكم إلا بغتة ) قضى الله أنها ( لا تأتيكم إلا بغتة ) قال وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق ويخفض ميزانه ويرفعه » وقال البخارى حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب أنبأنا أبو الزناد عن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » وقال مسلم فى صحيحه حدثنى زهير بن حرب حدثنا سفيان بن عيينه عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة يبلغ به قال تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته فما يصل الإناء الى فيه حتى تقوم الساعة والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم .

وقوله ( يسألونك كأنك حفى عنها ) اختلف المفسرون فى معناه فقيل معناه كما قال العوفى عن ابن عباس ( يسألونك كأنك حفى عنها ) يقول كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم قال ابن عباس لما سأل الناس النبى صلى الله عليه وسلم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدا حفى بهم فأوحى الله اليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكا مقربا ولا رسولا ، وقال قتادة قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم إن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة فقال الله عز وجل ( يسألونك كأنك حفى عنها ) وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وأبى مالك والسدى وهذا قول والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبى نجيح وغيره ( يسألونك كأنك حفى عنها ) قال استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها وكذا قال الضحاك عن ابن عباس ( يسألونك كأنك حفى عنها ) يقول كأنك عالم بها لست تعلمها ( قل إنما علمها عند الله ) وقال معمر عن بعضهم ( كأنك حفى عنها ) كأنك عالم بها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ( كأنك حفى عنها ) كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه وقرأ ( إن الله عنده علم الساعة ) الآية وهذا القول أرجح

فى المقام من الأول والله أعلم ولهذا قال (قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون) ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى ليعلم الناس أمر دينهم فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد وسأله صلى الله عليه وسلم عن الاسلام . ثم عن الإيمان . ثم عن الإحسان . ثم قال فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » أى لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم (إن الله عنده علم الساعة) الآية ، وفى رواية فسأله عن أشراط الساعة فبين له أشراط الساعة ثم قال « فى خمس لايعلمهن إلا الله » وقرأ هذه الآية وفى هذا كله يقول له بعد كل جواب صدقت ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه ، ثم لما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وفى رواية قال « وما أتانى فى صورة إلا عرفته فيها إلا صورته هذه » وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنة ، ولما سأله ذلك الأعرابى وناداه بصوت جهورى فقال يامحمد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هاؤم » على نحو من صوته قال يامحمد متى الساعة ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها » قال ما أعددت لها كبير صلاة ولاصيام ولكنى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله ﷺ « المرء مع من أحب » فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث وهذا له طرق متعددة فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال « المرء مع من أحب » وهى متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين ففيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذى لايحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ماهو الأهم فى حقهم وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤله قبل نزوله وان لم يعرفوا تعيين وقته . ولهذا قال مسلم فى صحيحه حدثنا أبوبكر بن أبى شيبة وأبوكريب قالا حدثنا أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول«إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم» يعنى بذلك موتهم الذى يفضى بهم إلى الحصول فى برزخ الدار الآخرة ثم قال مسلم وحدثنا أبوبكر بن أبى شيبة حدثنا يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن يعش هذا الغلام فعسى أن لايدركه الهرم حتى تقوم الساعة » انفرد به مسلم وحدثنى حجاج بن الشاعر حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد حدثنا سعيد بن أبى هلال المصرى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فال متى الساعة ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هنيهة ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة فقال « إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » قال أنس ذلك الغلام من أترابى وقال حدثنا هرون بن عبد الله حدثنا عفان بن مسلم حدثنا همام حدثنا قتادة عن أنس قال مر غلام للمغيرة بن شعبة وكان من أترابى فقال النبى ﷺ « إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » ورواه البخارى فى كتاب الأدب من صحيحه عن عمرو بن عاصم عن همام بن يحيى عن قتادة عن أنس أن رجلا من أهل البادية قال يارسول الله متى الساعة فذكر الحديث وفى آخره فمر غلام للمغيرة بن شعبة وذكره وهذا الاطلاق فى هذه الروايات محمول على التقييد بساعتكم فى حديث عائشة رضى الله عنها ، وقال ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر « تسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ماعلى ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة تأتى عليها مائة سنه » رواه مسلم وفى الصحيحين عن ابن عمر مثله قال ابن عمر وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن ، وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أنبأنا العوام عن جبلة بن سحيم عن موثر بن عفارة عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة - قال - فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال لا علم لى بها ، فردوا أمرهم الى موسى فقال لاعلم لى بها ، فردوا أمرهم الى عيسى فقال عيسى أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل وفيما عهد إلى ربه عروجل أن الدجال خارج - قال -

ومعى قضيبان فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله عز وجل إذا رآنى حتى إن الشجر والحجر يقول يا مسلم إن تحتى كافرا فتعال فاقتله قال فيهلكهم الله عز وجل ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم قال فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطأون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه قال ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعو الله عز وجل عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أى تنتن قال فينزل الله عز وجل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر قال الإمام أحمد قال يزيد بن هارون ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم ثم رجع إلى حديث هشيم قال ففيما عهد إلى ربى عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلا أو نهارا ورواه ابن ماجه عن بندار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب بسنده نحوه فهؤلاء أكابر أولى العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام فتكلم على أشراطها لأنه ينزل فى آخر هذه الأمة مقسطا لأحكام رسول الله ﷺ ويقتل المسيح الدجال ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه فأخبر بما أعلمه الله تعالى به : وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن أبى بكير حدثنا عبد الله بن زياد بن لقيط قال سمعت أبى يذكر عن حذيفة قال سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال « علمها عند ربى عز وجل لا يجليها لوقتها إلا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها إن بين يديها فتنة وهرجا » قالوا يا رسول الله الفتنة قد عرفناها فما الهرج قال « بلسان الحبشة القتل » قال « ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً » لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه وقال وكيع حدثنا ابن أبى خالد عن طارق بن شهاب قال كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت ( يسألونك عن الساعة أيان مرساها ) الآية ورواه النسائى من حديث عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبى خالد به وهذا إسناد جيد قوى فهذا النبى الأمى سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبى الرحمة ونبى التوبة ونبى الملحمة والعاقب والمقفى والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه مع قوله فيما ثبت عنه فى الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضى الله عنهما « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين إصبعيه السبابة والتى تليها ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها فقال ( قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون )

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه كما قال تعالى ( عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ) الآية وقوله ( ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ) قال عبد الرزاق عن الثورى عن منصور عن مجاهد ( ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ) قال لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملا صالحا وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج وفيه نظر لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفى رواية كان إذا عمل عملا أثبته فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله عز وجل فى جميع أحواله اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك والله أعلم . والأحسن فى هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس ( ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ) أى من المال وفى رواية لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ولا يصيبنى الفقر ، وقال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ولوقت الغلاء من الرخص فاستعددت له من الرخص وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ( وما مسنى السوء ) قال لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته ثم

أخبر أنه إنما هو نذير وبشير أى نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات كما قال تعالى ( فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا )

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) وقال تعالى ( يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ) الآية وقال فى هذه الآية الكريمة ( وجعل منها زوجها ليسكن إليها ) أى ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى ( ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ) فالألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه ( فلما تغشاها ) أى وطئها ( حملت حملا خفيفا ) وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألما إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة وقوله ( فمرت به ) قال مجاهد استمرت بحمله ، وروى عن الحسن وإبراهيم النخعى والسدى نحوه ، وقال ميمون بن مهران عن أبيه استخفته ، وقال أيوب سألت الحسن عن قوله ( فمرت به ) قال لو كنت رجلا عربيا لعرفت ما هى إنما هى فاستمرت به ، وقال قتادة ( فمرت به ) استبان حملها ، وقال ابن جرير معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت ، وقال العوفى عن ابن عباس استمرت به فشكت أحملت أم لا ( فلما أثقلت ) أى صارت ذات ثقل بحملها ، وقال السدى كبر الولد فى بطنها ( دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا ) أى بشرا سويا كما قال الضحاك عن ابن عباس أشفقا أن يكون بهيمة وكذلك قال أبو البخترى وأبو مالك أشفقا أن لا يكون إنسانا. وقال الحسن البصرى لئن آتيتنا غلاما ( لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ) ذكر المفسرون ههنا آثارا وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح فى ذلك إن شاء الله وبه الثقة ، قال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى ﷺ قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ورواه الترمذى فى تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ، ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ورواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره عن أبى زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعا ، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن إبراهيم مرفوعا : قلت وشاذ هو هلال وشاذ لقبه والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه ( أحدها ) أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازى لا يحتج به ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا فالله أعلم ( الثانى ) أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر ابن عبد الله عن سليمان التيمى عن أبى العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال سمى آدم ابنه عبد الحارث ( الثالث ) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن ( جعلا له شركاء فيما آتاهما ) قال كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ،

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال الحسن عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعنى (جعلا له شركاء فيما آتاهما) وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوا ونصروا ، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره ولاسيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتى بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم. فأما الآثار فقال محمد بن إسحق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادا فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال إنكما لو سميتماه بغير الذى تسميانه به لعاش قال فولدت له رجلا فسماه عبد الحارث ففيه أنزل الله يقول ( هو الذى خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — جعلا له شركاء فيما آتاهما ) الى آخر الآية ، وقال العوفى عن ابن عباس قوله فى آدم ( هو الذى خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — فمرت به ) شكت أحملت أم لا ؟ ( فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ) فأتاهما الشيطان فقال هل تدريان ما يولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل إنه غوى مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سويا ومات كما مات الأول فسميا ولدهما عبد الحارث فذلك قول الله تعالى ( فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ) الآية ، وقال عبد الله بن مبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله ( فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال : قال الله تعالى ( هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها ) آدم (حملت) فأتاهما إبليس لعنه الله فقال إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتطيعانى أو لأجعلن له قرنى إيل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما فسمياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ثم حملت الثانية فأتاهما أيضا فقال أنا صاحبكما الذى فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن — يخوفهما — فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضا فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى ( جعلا له شركاء فيما آتاهما ) رواه ابن أبى حاتم

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومن الطبقة الثانية قتادة والسدى وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فإن ابن عباس رواه عن أبى بن كعب كما رواه ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد يعنى ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها أتطيعينى ويسلم لك ولدك ، سميه عبد الحارث فلم تفعل فولدت فمات ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ثم حملت الثالثة فجاءها فقال إن تطيعينى يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة فهيبهما فأطاعا

وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون فى روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » وهو الذى لا يصدق ولا يكذب لقوله « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الأثر هو من القسم الثانى أو الثالث فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابى أو تابعى فانه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله ( فتعالى الله عما يشركون ) ثم قال فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص الى الجنس كقوله ( ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ) الآية ومعلوم أن المصابيح وهى النجوم التى زينت بها السماء ليست

هى التى يرمى بها وإنما هذا استطراد من شخص الصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر فى القرآن والله أعلم

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهى مخلوقة لله مربوبة مصنوعة لاتملك شيئا من الأمر ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها بل هى جماد لاتتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ولهذا قال ( أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ) أى أتشركون به من المعبودات مالا يخلق شيئا ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى ( يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ) أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لوسلبتهم الذبابة شيئا من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر ؟ ولهذا قال تعالى ( لايخلقون شيئا وهم يخلقون ) أى بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل ( أتعبدون ماتنحتون ) الآية ثم قال تعالى ( ولا يستطيعون لهم نصرا ) أى لعابديهم ( ولا أنفسهم ينصرون ) يعنى ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه فى قوله ( فراغ عليهم ضربا باليمين ) وقال تعالى ( فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون ) وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتأوا لأنفسهم فكان لعمرو بن الجموح وكان سيدا فى قومه صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ماصنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له انتصر ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه فى حبل فى بئر هناك فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال :

تالله لو كنت إلها مستدن * لم تك والكلب جميعا فى قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيدا رضى الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه وقوله ( وإن تدعوهم إلى الهدى لايتبعوكم ) الآية يعنى أن هذه الأصنام لاتسمع دعاء من دعاها وسواء لديها من دعاها ومن دحاها كما قال إبراهيم ( يا أبت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولا يغنى عنك شيئا ) ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أى مخلوقات مثلهم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش وتلك لاتفعل شيئا من ذلك وقوله (قل ادعوا شركاءكم ) الآية أى استنصروا بها على فلاتؤخرونى طرفة عين واجهدوا جهدكم ( إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ) أى الله حسبى وكافينى وهو نصيرى وعليه متكلى وإليه ألجأ وهو ولي فى الدنيا والآخرة وهو ولى كل صالح بعدى وهذا كما

قال هود عليه السلام لما قال له قومه ( إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ) وكقول الخليل ( أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون * فانهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين ) الآيات وكقوله لأبيه وقومه ( إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ) وقوله ( والذين تدعون من دونه ) إلى آخر الآية مؤكد لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذاك بصيغة الغيبة ، ولهذا قال ( لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ) وقوله ( وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ) كقوله تعالى ( إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ) الآية وقوله (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ) إنما قال ( ينظرون إليك ) أى يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهى جماد ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صور مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك فعبر عنها بضمير من يعقل ، وقال السدى المراد بهذا المشركون ، وروى عن مجاهد نحوه والأول أولى وهو اختيار ابن جرير وقاله قتادة

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله ( خذ العفو ) يعنى خذ ما عفا لك من أموالهم وما أتوك به من شىء فخذه وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات، قاله السدى وقال الضحاك عن ابن عباس ( خذ العفو ) أنفق الفضل ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ( خذ العفو ) قال الفضل وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى قوله ( خذ العفو ) أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ثم أمره بالغلظة عليهم ، واختار هذا القول ابن جرير ، وقال غير واحد عن مجاهد فى قوله تعالى ( خذ العفو ) قال من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس ، وقال هشام بن عروة عن أبيه أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وفى رواية قال خذ ما عفا لك من أخلاقهم ، وفى صحيح البخارى عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير قال إنما أنزل خذ العفو من أخلاق الناس، وفى رواية لغيره عن هشام عن أبيه عن ابن عمر ، وفى رواية عن هشام عن أبيه عن عائشة أنهما قالا مثل ذلك والله أعلم، وفى رواية سعيد بن منصور عن أبى معاوية عن هشام عن وهب بن كيسان عن أبى الزبير خذ العفو قال من أخلاق الناس والله لآخذنه منهم ما صحبتهم وهذا أشهر الأقوال ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم جميعا حدثنا يونس حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أبى قال لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ( خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين ) قال رسول الله ﷺ « ما هذا يا جبريل ؟» قال إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك ، وقد رواه ابن أبى حاتم أيضا عن أبى يزيد القراطيسى كتابة عن اصبغ بن الفرج عن سفيان عن أبى عن الشعبى نحوه، وهذا مرسل على كل حال وقد روى له شواهد من وجوه أخر وقد روى مرفوعا عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة عن النبى ﷺ أسندهما ابن مردويه ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا شعبة حدثنا معاذ بن رفاعة حدثنى على بن يزيد عن القاسم بن أبى أمامة الباهلى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت يا رسول الله أخبرنى بفواضل الأعمال فقال « يا عقبة صل من قطعك وأعط من حرمك وأعرض عمن ظلمك » وروى الترمذى نحوه من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد به وقال حسن قلت ولكن على بن يزيد وشيخه القاسم أبو عبد الرحمن فيهما ضعف ، وقال البخارى قوله ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) العرف المعروف حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضى الله عنهما قال قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته

كهولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه قال سأستأذن لك عليه قال ابن عباس فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال هى يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل انفرد باخراجه البخارى ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن أنس عن عبد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على عير لأهل الشام وفيها جرس فقال إن هذا منهى عنه فقالوا نحن أعلم بهذا منك إنما يكره الجلجل الكبير فأما مثل هذا فلا بأس به فسكت سالم وقال ( وأعرض عن الجاهلين ) وقول البخارى :العرف المعروف، نص عليه عروة بن الزبير والسدى وقتادة وابن جرير وغير واحد وحكى ابن جرير أنه يقال أوليته معروفا وعارفا وعارفة كل ذلك بمعنى المعروف قال وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ويدخل فى ذلك جميع الطاعات وبالاعراض عن الجاهلين وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فانه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالاعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) قال هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه فى بيتين فيهما جناس فقال :

خذ العفو وأمر بعرف كما * أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولن فى الكلام لكل الأنام * فمستحسن من ذوى الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه وإما مسىء فمره بالمعروف فان تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر فى جهله فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده كما قال تعالى ( ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ) وقال تعالى(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ) أى هذه الوصية ( وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ) وقال فى هذه السورة الكريمة أيضاً (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ) فهذه الآيات الثلاث فى الاعراف والمؤمنون وحم السجدة لارابع لهن فانه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف بالتى هى أحسن فانه ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ولهذا قال ( فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ) ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان فانه لا يكفه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فانه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك قال ابن جرير فى تفسير قوله (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ) وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الاعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته ( فاستعذ بالله ) يقول فاستجر بالله من نزغه ( إنه سميع عليم ) سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شىء عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزلت ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) قال: يا رب كيف بالغضب ؟، فأنزل الله ( وإما ينزغنك الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ) قلت وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبى ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضبا ، فقال رسول الله ﷺ « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقيل له فقال ما بى من جنون . وأصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره قال الله تعالى ( وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ) والعياذ الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما الملاذ ففى طلب الخير كما قال الحسن بن هانىء فى شعره

يامن ألوذ به فيما أؤمله * ومن أعوذ به مما أحاذره
لايجبر الناس عظماً أنت كاسره * ولايهيضون عظما أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة فى أول التفسير بما أغنى عن إعادته هاهنا

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ماعنه زجرأنهم (إذا مسهم) أى أصابهم طيف وقرأ الآخرون طائف وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان فقيل بمعنى واحد وقيل بينهما فرق ومنهم من فسر ذلك بالغضب ومنهم من فسر بمس الشيطان بالصرع ونحوه ومنهم من فسره بالهم بالذنب ومنهم من فسره باصابة الذنب وقوله (تذكروا) أى عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا اليه من قريب ( فإذاهم مبصرون ) أى قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه وقد أورد الحافظ أبوبكر بن مردويه هاهنا حديث محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال جاءت امرأة الى النبى ﷺ وبها طيف فقالت يارسول الله ادع الله أن يشفينى فقال « إن شئت دعوت الله فشفاك وإن شئت فاصبرى ولا حساب عليك » فقالت بل أصبر ولا حساب علىّ ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت يارسول الله إنى أصرع وأتكشف فادع الله أن يشفينى فقال « إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئت صبرت ولك الجنة » فقالت بل أصبر ولى الجنة ولكن ادع الله أن لاأتكشف فدعا لها فكانت لاتتكشف وأخرجه الحاكم من مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقد ذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه أن شابا كان يتعبد فى المسجد فهويته امرأة فدعته إلى نفسها فمازالت به حتى كاد يدخل معها المنزل فذكر هذه الآية ( إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون ) فخر مغشيا عليه ثم أفاق فأعادها ثمات فجاء عمر فعزى فيه أباه وكان قد دفن ليلا فذهب فصلى على قبره بمن معه ثم ناداه عمر فقال يافتى ( ولمن خاف مقام ربه جنتان ) فأجابه الفتى من داخل القبر ياعمر قد أعطانيهما ربى عزوجل فى الجنة مرتين . وقوله تعالى ( وإخوانهم يمدونهم ) أى وإخوان الشياطين من الإنس كقوله (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ) وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم يمدونهم فى الغى أى تساعدهم الشياطين على المعاصى وتسهلها عليهم وتحسنها لهم وقال ابن كثير المد الزيادة يعنى يزيدونهم فى الغى يعنى الجهل والسفه (ثم لايقصرون) قيل معناه إن الشياطين تمد الانس لاتقصر فى أعمالهم بذلك كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لايقصرون ) الآية قال لا الانس يقصرون عما يعملون ولا الشياطين تمسك عنهم وقيل معناه كما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله ( يمدونهم فى الغى ثم لايقصرون ) قال هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لايقصرون يقول لايسأمون وكذا قال السدى وغيره أن يعنى الشياطين يمدون أولياءهم من الانس ولا تسأم من إمدادهم فى الشر لأن ذلك طبيعة لهم وسجية (لايقصرون) لاتفتر فيه ولا تبطل عنه كما قال تعالى (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ) قال ابن عباس وغيره تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى ( قالوا لولا اجتبيتها ) يقول لولا تلقيتها وقال مرة أخرى لولا أحدثها وأنشأنها وقال ابن جرير عن عبد الله بن كثير عن مجاهد فى قوله ( وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ) قال لولا

اقتضيتها قالوا نخرجها عن نفسك وكذا قال قتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقال العوفى عن ابن عباس (لولا اجتبيتها) يقول تلقيتها من الله تعالى وقال الضحاك (لولا اجتبيتها) يقول لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء ومعنى قوله تعالى (وإذا لم تأتهم بآية) أى معجزة وخارق كقوله تعالى (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم ألا تجهد نفسك فى طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها قال الله تعالى له (قل إنما أتبع مايوحى إلىّ من ربى) أى أنا لا أتقدم اليه تعالى فى شىء وإنما أتبع ما أمرنى به فأمتثل مايوحيه إلىّ فان بعثت آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لى فى ذلك فإنه حكيم عليم ثم أرشدهم الى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات فقال (هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالانصات عند تلاوته إعظاما له واحتراما لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون فى قولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) الآية ولكن يتأكد ذلك فى الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا » وكذا رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة أيضا وصححه مسلم بن الحجاج أيضا ولم يخرجه فى كتابه وقال إبراهيم بن مسلم الهجرى عن أبى عياض عن أبى هريرة قال كانوا يتكلمون فى الصلاة فلما نزلت هذه الآية (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له) والآية الأخرى أمروا بالانصات، قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن المسيب بن رافع قال ابن مسعود كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة فجاء القرآن (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا المحاربى عن داود بن أبى هند عن بشير بن جابر قال صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرءون مع الإمام فلما انصرف قال أما آن لكم أن تفهموا أما آن لكم أن تعقلوا (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) كما أمركم الله قال وحدثنى أبو السائب حدثنا حفص عن أشعث عن الزهرى قال نزلت هذه الآية فى فتى من الأنصار(١) كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئا قرأه فنزلت (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث الزهرى عن أبى أكتمة الليثى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال « هل قرأ أحد منكم معى آنفا ؟ » قال رجل نعم يارسول الله ، قال « إنى أقول مالى أنازع القرآن » قال فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ وقال الترمذى هذا حديث حسن وصححه أبو حاتم الرازى ، وقال عبد الله بن المبارك عن يونس عن الزهرى : قال لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته ولكنهم يقرءون فيما لا يجهر به سرا فى أنفسهم ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرا ولا علانية فإن الله تعالى قال (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) قلت هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه فى الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها وهو أحد قولى الشافعية وهو القديم كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة وقال فى الجديد يقرأ الفاتحة فقط فى سكتات الإمام وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل لا يجب على المأموم قراءة أصلا فى السرية ولا الجهرية بما ورد فى الحديث « من كان له إمام فقراءته قراءة له » وهذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر مرفوعا وهو فى موطأ مالك عن وهب بن كيسان عن جابر موقوفا وهذا أصح وهذه المسألة مبسوطة فى غير هذا الموضع وقد أفردها الإمام أبو عبد الله البخارى مصنفا على حدة واختار وجوب القراءة خلف الإمام فى السرية والجهرية أيضا والله أعلم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية

(١) فيه أن الآية مكية نزلت قبل إسلام الأنصار .

قوله ( وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ) يعنى فى الصلاة المفروضة ، وكذا روى عن عبد الله بن المغفل ، وقال ابن جرير حدثنا حميد بن مسعدة حدثنا بشر بن المفضل حدثنا الجريرى عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال : رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبى رباح يتحدثان والقاص يقص ، فقلت ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود ؟ قال فنظرا إلى ثم أقبلا على حديثهما ، قال فأعدت فنظرا إلى وأقبلا على حديثهما ، قال فأعدت الثالثة قال فنظرا إلى فقالا : إنما ذلك فى الصلاة ( وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ) وكذا قال سفيان الثورى عن أبى هاشم إسماعيل بن كثير عن مجاهد فى قوله ( وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ) قال فى الصلاة وكذا رواه غير واحد عن مجاهد ، وقال عبد الرزاق عن الثورى عن ليث عن مجاهد قال : لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم ، وكذا قال سعيد ابن جبير والضحاك وإبراهيم النخعى وقتادة والشعبى والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بذلك فى الصلاة وقال شعبة عن منصور سمعت إبراهيم بن أبى حمزة يحدث أنه سمع مجاهدا يقول فى هذه الآية ( وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ) قال فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة ، وكذا روى ابن جريج عن عطاء مثله ، وقال هشيم عن الربيع بن صبيح عن الحسن قال فى الصلاة وعند الذكر ، وقال ابن المبارك عن بقية سمعت ثابت بن عجلان يقول سمعت سعيد بن جبير يقول فى قوله ( وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ) قال الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة وهذا اختيار ابن جرير أن المراد من ذلك الإنصات فى الصلاة وفى الخطبة كما جاء فى الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة ، وقال عبد الرزاق عن الثورى عن ليث عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً قال السكوت ، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن إذا جلست إلى القرآن فأنصت له وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عباد بن ميسرة عن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله ( فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ) وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء وهذه الآية مكية ، وقال ههنا بالغدو وهو أول النهار والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين ، وأما قوله ( تضرعا وخيفة ) أى اذكر ربك فى نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهرا ولهذا قال ( ودون الجهر من القول ) وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرا بليغا ، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل ( وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان )

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار فقال لهم النبى ﷺ « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا إن الذى تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وقد يكون المراد من هذه الآية كما فى قوله تعالى ( ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ) فان المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم وليتخذ سبيلا بين الجهر والاسرار ، وكذا قال فى هذه الآية الكريمة ( ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ) وقد زعم ابن جرير وقبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة وهذا بعيد مناف للانصات المأمور به ، ثم إن المراد بذلك فى الصلاة كما تقدم أو فى الصلاة والخطبة ومعلوم

أن الأنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان سواء كان سرا أو جهرا فهذا الذى قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال لئلا يكونوا من الغافلين ، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال ( إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ) الآية ، وإنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم فى كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء فى الحديث « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف الأول فالأول ويتراصون فى الصف » وهذه أول سجدة فى القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع ، وقد ورد فى حديث رواه ابن ماجه عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ أنه عدها فى سجدات القرآن آخر تفسير سورة الأعراف ولله الحمد والمنة

## ﴿ تفسير سورة الأنفال ﴾

وهى مدنية . آياتها سبعون وست آيات . كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفا والله أعلم .

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال البخارى : قال ابن عباس : الأنفال المغانم ، حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان أخبرنا هشيم أخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس رضى الله عنهما سورة الأنفال قال نزلت فى بدر . أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال الأنفال الغنائم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شىء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد أنها المغانم ، وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال : الأنفال الغنائم ، قال فيها لبيد :

إن تقوى ربنا خير نفل * وبإذن الله ريثى والعجل

وقال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن أنس عن ابن شهاب عن القاسم بن محمد قال سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال ابن عباس رضى الله عنهما : الفرس من النفل والسلب من النفل . ثم عاد لمسألته فقال ابن عباس ذلك أيضا ثم قال الرجل : الأنفال التى قال الله فى كتابه ما هى ؟ قال القاسم فلم يزل يسأله حتى كاد يحرجه فقال ابن عباس أتدرون ما مثل هذا مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا سئل عن شىء فال لا آمرك ولا أنهاك ثم قال ابن عباس والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجرا آمرا محللا محرما . قال القاسم فسلط على ابن عباس رجل فسأله عن الأنفال فقال ابن عباس : كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك ثم عاد عليه حتى أغضبه فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبيه أو على رجليه ، فقال الرجل أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل والله أعلم .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت ( يسألونك عن الأنفال ) وقال ابن مسعود ومسروق لا نفل يوم الزحف إنما النفل قبل التقاء الصفوف رواه ابن أبى حاتم عنهما ، وقال ابن المبارك وغير واحد عن عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء بن أبى رباح فى الآية ( يسألونك عن الأنفال ) قال يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبى صلى الله